السماء تلامس البحر

أشرف نبوي

السماء تلامس البحر / قصص

أشرف نبوي

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، اش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ – ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تدقيق لغوي :

أحمد منتصر

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/٩٧٥٧

I.S.B.N: 978-977-6297-02-9

السماء تلامس البحر

قصص

أشرف نبوي

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



دار اكتب للنشر والتوزيع

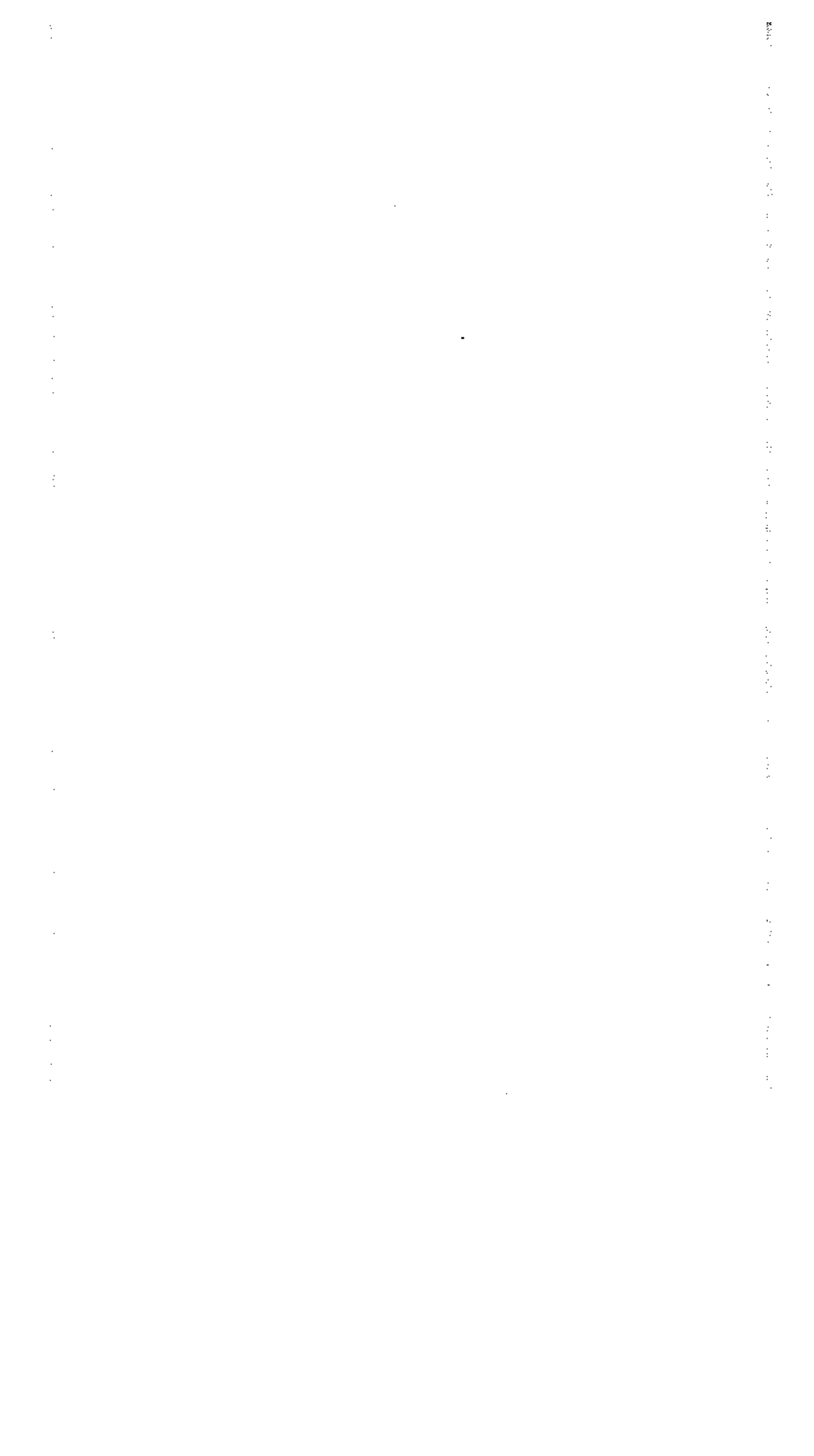
إهداء

إلى شريكة أيام العمر

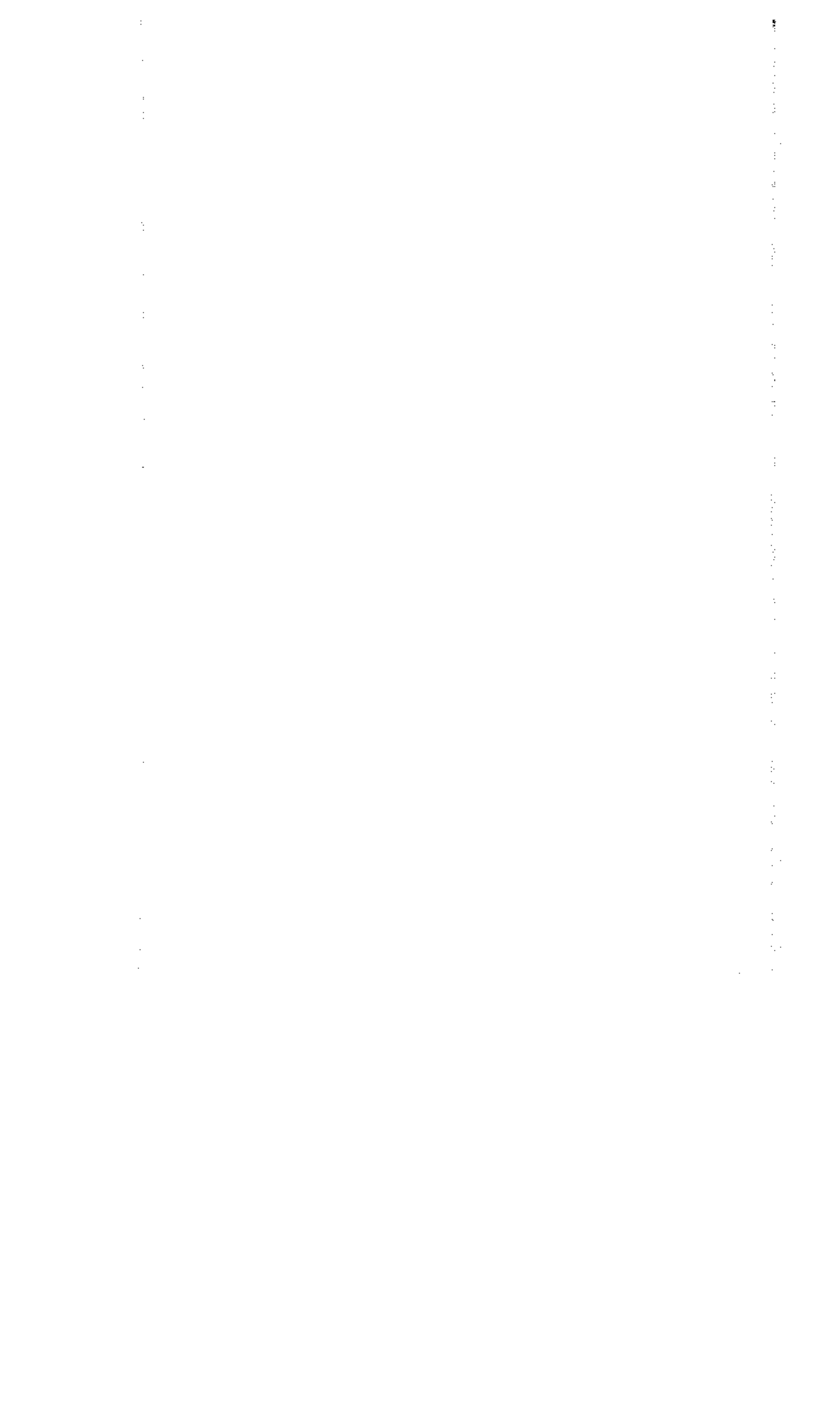
مقدمه

حين تتماها الحقيقة بالخيال وتمتزج الصورة بشكل عفوي وبأساليب معاشه يوميا ، يصبح الخط الفاصل بين الممكن والمستحيل خيط رفيع ، وتغدو محاولاتنا المستمرة في البحث عن السعادة التامة ، أو أدراك الكمال نوعا من الإغراق في الحلم ، ولا يدرك السعادة إلا من حاز جانبا من الرضا والقناعة في غير استكانة أو ركون إلي الدعة بل بمعانقة الأمل ، واستشراف المستقبل بطموح .. حقيقة صاغتها الشخوص هنا في حكايات يتداخل فيها الخيال مع الواقع الذي عشته بنفسي أو عايشته عن قرب مع احتفاظي دوما بغلالة رقيقه تصون خصوصية الأطياف التي مرت ببعض القصص هنا .

أشرف نبوي



أبداً لم يكن لها



لاحت منها نظره غاضبة وهي ترى يد شقيقتها وهي تفلتها من بين يدي خطيبها الذي جلس بقربها، شعر هو بالخجل أمام نظراتها الجريئة، حاول التحدث فلم تطاوعه شفتاه، هب واقفا، استأذن في الانصراف.

ارتفع صوتها وهي توبخ أختها الكبرى: كيف تسمحين لـــه بلمس يدك؟ وقفت أختها ذاهلة وهي تحاول في خجل أن تكمم فمها بيدها، في محاوله ألا يصل صوتها لأحد بالمنزل، حاولـــت تهدئتها وهي تقول: لقد عقدنا القران أنسيت؟ إنه زوجي الآن، لم تقتنع بكلمات أختها، خفضت صوتها وهي تقـــول بنـــبرة لازالت ثائرة: لكنه ليس زوجك بعد، تبسمت أختها و لم ترد.

في زيارته التالية، حرصت أن تجلس بقربهما، في مواجهتهما تماما، حدقت فيه كثيرًا، جلسا يتحـــدثان ويبتـــسمان وهـــي

تراقبهما بدقة، شعرت بضيق وهو يلاطف أختها ببعض الكلمات، في تلك الليلة وبعد انصرافه تساءلت لَمَ كل هذا الضيق؟، ولماذا تتضايق كلما حضر وجلس مع أختها؟، كرهت أن تفصح عن مكنونات نفسها، أيعقل هذا؟ أيكون حبه قد لامسْ شغاف قلبها؟، حاولت إبعاد الفكرة عن رأسها، ظلت ساهرة تتقلب في سريرها، أزعجها هذا الخاطر، نعم لقد كانت تنظر إليه بإعجاب وتتمنى، لا لم تتمنَّ، ذرفت دمعة ساخنة من عينيها، لقد كان جارهم تراه يوميًا، نعم هو دومًا يحادثها بلطف، لكن هذا كان يزيدها احترامًا وتقديرًا له، دمعت عيناها وهي تحاول مجددًا طرد خواطرها ، أيعقل هذا؟ أحب خطيب أختي، بل زوجها الذي يحبها وتحبه؟، ولكن من أدراني أنه يحبها هي؟، إنه لا يفتأ ينظر إليّ أثناء جلوسهما معًا، لكن أيعني هذا شيئًا؟، نعم إنه ينظر إليّ بعينين هائمتين، ظلت أفكارها تراوح بين اليقين والشك، وهي تحاول أن تطرد الأفكار المتسلطة علي رأسها، لا، ولو كان يحبني؟ لا، فماذا ستفعل أختي إنها تعشقه؟، هو حياتها كل آمالها ولكن أليس من حقي أنا أيضًا أن أدافع عن حبي؟، هزتها الكلمة الأخيرة ، ما هذا الهُراء كيف أتحدث عن حبي، أحقا أحبه؟، همست بها لكنها خرجت من صدرها، لا

داعي لأن أنكر، بكت وبللت وسادتها، ظلت على حالها حتى سمعت أذان الفجر ، قامت وتوضأت، صلت وهي تبتهل إلي الله أن يلهمها فعل الصواب .

مرت الأيام ثقيلة وهي تحاول مجاهدة نفسها، تنشغل بأي شيء أثناء زيارته لهم وجلوسها معهم، صمتها، الحزن البادي بعينيها، أقلقهما، حاولا محادثتها، كانت ترد في اقتضاب ولا تلتفت، حين تختلي بها أختها وتحاول معرفة سبب حزنها، كانت تبكي ولا ترد، ثقيلة هي الأيام الحزينة في مرورها، قررت أختها وخطيبها الخروج للنزهة، حاولا معها، اقتنعت علي مضض بمرافقتهما، سألاها في لطف: أي الأماكن تريدين الذهاب إليها؟، أنتِ ضيفتنا، هزت كتفيها في غير اكتراث، أحاطاها كل من جهته، ربت علي كتفها في حنو وهو يقول آه لو تعلمين كم نحبك أنا وأختك، هز رأسه في يأس وهو يهمس، آه لو تبوحين بما يضايقك، ربما عندها ستجدين لدينا حلا لما تعانين، نظرت إلى الأرض وظلت صامتة .

في طريق عودتهم ظلت على صمتها، ضحكات أختها وخطيبها يمازحها، زرعت ابتسامة باهته على شفتيها، علت

ضحكة أختها وهي تعدو هاربة من ملاحقة خطيبها، حاولت مجاراتهما، بدأت تعدو خلفهما، فجأة تسمرت قدماها، شقت صرختها الأفق، وسيارة مسرعة ترمي بجسد أختها في الهواء، لمحت بقايا ضحكة على شفتي أختها وهي تهوي مستقرة على الأرض بلا حراك، جثا بجوارها على الأرض في ذهول، أما هي فوقفت بعيدًا ودموعها تنساب في غزارة، حينما حملت سيارة الإسعاف جثة أختها قفزت بجوارها، انطلقت السيارة وصوتها يصم الآذان، تاركة وراءها بقايا رحل ينتحب ...

أبو حدافه

كنت قد جاوزت الثلاثين بقليل، وكأكثر أبناء جيلي لم تتح لي فرصة الزواج لضيق ذات اليد، كنا رفقة نتكاتف علي مرارة واقعنا بالسمر والسهر، نتجمع يوميًا وننطلق لتجاذب أطـراف الحديث على حدود قريتنا في فضاء واسع يشعرنا بالحرية ولـو قليلا، ويطلق لضحكاتنا وسخريتنا العنان، فنفرغ همومنا وألمنـا يوميًا في تلك الجلسات التي نناقش فيها كل ما سمعناه ورأينـاه، عند عودتنا كنا نستشعر أننا قد ألقينا عن كاهلنـا كـل مـا أحضرناه من هموم، لكن مع تكرار الحديث ورؤية نفس الوجوه يوميًا أصبنا بالملل وشعرنا بأن طوق الألم قد استحكم في رقابنا، فأصبحنا لا نتقابل سوى مرة كل عدة أيام. وفي ليلة من ليـالي الصيف المضجرة في قريتنا النائية، كنا مجتمعين أنا والصحبة من أقراني في طرف البلدة نتسامر، حين هبط علينا، سمعنا صـخبا وعراكا مختلطا بخشخشة أصوات متداخلة، قمت أستطلع الأمر فوجدته أمامي بأسماله وملابسه عجيبة الألوان ومسابحه الملتفـة

حول العنق، يمسك بيده عصا غليظة يتكئ عليهـــا، رفعهـــا في وجهي فور أن رآني، وسرعان ما خفضها حين لاحت ابتسامة على وجهي، وانفرجت شفتاه عن ضحكه مجلجلة، وأخـــذت الأحرف تتطاير من بين ضحكاته وهو يلتفت وراءه فلمحـــت امرأة تحمل طفلا وبيدها آخر تشاركه الضحك وهـــي تحـــاول تغطية وجهها بطرف ثوبها، استمرا في الضحك وهما يترنحان إلى الأرض خاصة بعدما أتى أصحابي، وتعلقت أعينـــهم المحملقـــة بدهشة بهذين الغريبين وأولادهما .

مرت أيام وهو يأوي إلى خيمة كان قد شيدها عند وصوله قرب ساحة القرية، قوته اليومي يحمله إليه أطفال القرية الـــذين ألفوه وتوثقت عرى الحب بينه وبينـــهم، حكاياتـــه الغريبـــة وضحكته الطفولية العذبة، مداعباته كلـــها أشـــياء جعلتـــهم يتحلقون حوله يوميًا يغنون أغنياته الـــتي يحفظهـــا ويرددهـــا ويقلدون حركاته ونظرات عينيه، يحضرون إليه ما لذ وطـــاب يلتهمه في نهم ويدفع إلى زوجته وطفليه بالباقي، زوجته لا تظهر خارج الخيمة كثيرًا لكن صوتها الجهوري وسبابها المستمر لـــه، ولعن اليوم الذي قابلته فيه ينبؤهم دومًا عن وجودها، كنا نمـــر بخيمته في ذهابنا وإيابنا نجده محملقا في السماء أو منشغلا بالتهام طعامه، حركته قليلة جدًا إن لم تكن معدومة، لم نره قـــط إلا جالسًا مسندًا ظهره إلى شجرة ربط فيها طرف خيمته، يرمقنـــا

بنظرة شاردة مبتسمًا، أحيانا يشير لنا بيده، فنعبر به إلى وجهتنا والأسئلة تتزاحم برؤوسنا عن سر هذا الرجل الذي هبط على قريتنا كسكان الفضاء، لا نعرف عنه شيئا ولا عن سبب اختياره لقريتنا، لكن دومًا كان كل منا يتظاهر بأن الأمر لا يعنيه ولا يصرّح بأسئلته، إلى أن ضاق صدري بتساؤلاتي في ليلة هادئة ونحن عائدون، حين لمحته جالسًا في هدوء محملقا في القمر، أسرعت الخطى نحوه، نظرت إليه وأنا ألقي التحية فتبسم وهو يشير إلي أن أجلس قبالته، وبيده الأخرى إلى أذنه كي أنصت، تملكتني الدهشة، لم أسمع شيئا، ظل يهز رأسه في انسجام غريب، جلس الباقون قريبا في صمت، همس: هل سمعت صوت القمر يوما؟، أنصت، أنصت جيدًا، إذن حاول أن تسمعه الآن، أنصت، حين صك سمعي الصمت أيقنت أن الرجل به جنة، أو مسّ من الجن، هممت بالانصراف، ابتسم وهو يصيح: أتظنني مجنونا؟ لم أستطع كتم ضحكتي، اتسع فمه عن ابتسامة عريضة، وعلا صوت ضحكته فجلجل صوتنا جميعًا في فضاء الساحة بالضحك، ساد صمت بعد برهة قبل أن يهمس: تحدث قل ما عندك، أطرقت إلى الأرض فقال: سأوفر عليك الحرج، أنا يا بني كما ترى لا أملك شيئا، ولا أتقن عمل شيء بالأحرى، فشلت في كل ما حاولت، فهمت على وجهي بعد وفاة والدي، لم أر أمي، جلدتني الحياة بقسوة وهأنذا،

أغتصبها، أستبيحها، وأستمتع كما يحلو لي، لا كما تريد هي، رفع عمامته وأشار إلى شعره الأبيض: أترى هذا الشيب يا ولدي؟، إنه نتاج الحياة الطويلة التي عركتني.وعركتها، لست سفيهًا أو مجنونا، لكنني أعيش حياتي ببساطة، فلمَ أعقد الأمور وأنا قادر على أن أحيا دون تعقيداتكم؟، رفع غطاءً كان بجواره وهو يتمتم: والآن عليكم بالرحيل فقد حضر سلطان النوم، ومال بجسده فاردًا الغطاء ثم أردف ناظرًا إلي: أعرف أن لديك أسئلة كثيرة، عد متى شئت، وراح في سبات .

بقيت طوال الليل أفكر في حديثه، وقد شعرت برغبة عارمة في أن ألتقيه، أن أتحدث إليه، وأسبر أغوار نفسه الغريبة والعجيبة، في الصباح وأنا في طريقي للعمل مررت بخيمته وجدته جالسًا يأكل، دعاني إلى الطعام، اعتذرت وأنا أرد سلامه في عجلة، بقيت يومي منشغلا به ومقلبًا للأفكار برأسي، بعد عودتي أخذت قسطا من الراحة، وقد وطدت العزم على أن أجالسه وحدي، اعتذرت لرفاقي عن مرافقتهم، توجهت إلى خيمته حاملا معي رغبتي المحمومة في الاقتراب أكثر من عالمه، تبسّم حين رآني قادمًا ورفع عصاه صائحًا في الأطفال المتحلقين حوله بأن يرحلوا، وليعودوا محملين بالأطايب التي تجود بها أمهاتهم، جلست بقربه، بدا سعيدًا بمجيئي، صاح: شاي للأستاذ يا بت، فجاءه الرد سيلا من الشتائم والصياح، سبق خروجها الغاضب،

وما إن رأتني حتى غطت وجهها بطرف ثوبها وهي تكمل صياحها، ثم اعتذرت لي وهي تكمل: أصل البعيد عامل فيها عمدة، طيب يقوم يشوف شغله، أو يكد زى كل الرجالة، وألا طول عمرنا هنفضل كدا شحاتين، ثم ختمت حديثها: لا مؤاخذة يا أستاذ أعملك الشاي حالا .

نظر إلي سعيدًا وهو يتمتم: أرأيت نساء مثل زوجتي في حياتك؟، كتمت ضحكتي وأنا أهز رأسي نافيا، قال مستهلا حديثه: لقد أحببتك يا بني، وشعرت بحيرتك وكم الدهشة الذي بعينيك، وتوقك إلي المعرفة، أتعلم أنا لم يكن لي يوما صديقا سوي نفسي، ربما نصبح يوما أصدقاء، نظر إلي عينيّ بعمق وأردف: لا تتعجل، سنكون كذلك رأيت هذا في عينيك، والآن ترى ما تحب أن نتحدث فيه ؟ الحياة، النساء، السياسة، أم المال؟ .

تأملته في راحة وابتسامة باهتة تلوح على شفتيّ، ثم باغته بسؤال عن زوجته كيف التقاها و لم يصبر على لسانها وسبابها؟، اعتدل وكأنه يهم بإلقاء خطبة، ثم نطق في بساطة وهو يتبسم: النصيب يا ولدي النصيب، وخفف من حدة صوته وهو يقول: وما الفرق يا ولدي؟، النساء كلهن واحدة، لمعت دهشة في عينيّ، لمحها فاقترب من أذني وهو يهمس: الأنثى زهرة حين تتفتح

تتمنى مجرد لمسها، ثم تقترب منها وتحاول ضـــمها واستنـــشاق عبيرها بحرص ورهبة من أن تتأذى من لمساتك، فإذا اقتطفتـــها وملكتها تذهب بمجتها، وتستشعر وخز الشوك من فرعها، تدمي يدك لكنك لا تقدر على الإفلات من نسيج حبك لها وحرصك علي قربها .

قطعت حديثه إطلالة زوجته، قدمت الشاي وهي تـــداري ابتسامة خجل بطرف ثوبها، همست إليه: لكنك تحبـــها وهـــي كذلك على ما يبدو، أطرق للأرض وهو يتمتم: وهل لها غيري أو أنا لي غيرها بهذا العالم؟، بادرته بسؤال عن حياتـــه وهـــل تعجبه حياة التسول؟ وكيف لم يتسن له أن يجد بيتا يأوي إليه، فتبسم وهو يلوح بيده جهة الخيمة: أليس هذا بيتا؟، بـــيتي يـــا ولدي هو حضن زوجتي، وسكني عيناها، أمـــا هـــذا الفـــضاء الواسع فهو ملكي لما أحدد وأكتفي من ملكوت الله الرحـــب بأربعة جدران، ومن قال لك إنني أتسول أحدًا أو أطلب يومًـــا من أحد؟ والله يرزقني، أطرقت للأرض لعدم اقتناعي بما يحـــاول أن يسوقه من حجج بذكاء حاول الانتقال إلى موضوع آخـــر، أشاح بوجهه بعيدًا وهو يتمتم: ترى هل سمعـــت شـــيئا عـــن التعديل الوزاري؟ عانقت الابتسامة شفتيّ وأنا أنظر إلى القـــابع أمامي في أسمال بالية، ويتساءل عن أمر قد لا يهم الكـــثيرين أو يعنيهم، لكنني فضلت أن أسايره لأعـــرف إلى أيـــن يأخـــذنا

الحديث، أجبته: نعم هناك تعديل وزاري محدود، لكن أيشغلك هذا الأمر؟ لم يجبني لكنه أردف بسؤال: كم بلغ عدد ضحايا إعصار تسونامي، فغرت فاهي وأنا لا أكاد أصدق الرجل في. شبه عزلة لا وسائل اتصال بالعالم لديه، حتى إنني أكاد أجزم أنه ليس لديه مذياع، التفت إلي وهو يتسم، وهمس من جديد: لا تتعجب يا ولدي الذي يريد أن يعرف سيعرف، والذي يريد أن يتعلم سيتعلم، تعثرت الأحرف على لساني، وبقيت ساكنا للحظات، ثم باغته بسؤال عن اسمه، ضحك ضحكته العالية وأخذ نفسًا عميقا قبل أن يهم بالكلام: يا بني أنا كنت في شبابي أفضل من يرمي بالحدافة، وكي أوفر عليك فهذه الحدافة عبارة عن حبل طويل مربوط بآخره قطعة حديد هلالية الشكل، نرمي بها لنلتقط الأشياء الساقطة في عمق أو المعلقة في مكان عال كشجرة، وكنت أمتهن تلك المهنة إن عددتها مهنة! وأجني من ورائها قوت يومي، وسرح بخياله كمن يستعيد مجد الأيام الخالية، وهمهم ببعض الكلمات، فهمت منها كيف كان التصفيق يصم آذانه عندما ينجح في التقاط شيء ذي قيمة من أول مره خاصة إذا كان هذا الشيء يخص شخصًا ذا أهمية، ثم انتبه لي وهو يقول: لهذا أطلق علي هذا الاسم ولازمني حتى إنني كدت أنسى اسمي الحقيقي، نظر مليًا إلى عينيّ ثم قال: وأنت لَم لَمْ تتزوج حتى الآن؟، تبسمت وأنا أجيبه: لكن كيف عرفت

أنني لم أتزوج، قال: للعيون لغة لا يفهمها إلا القليـــل، قلـــت: كيف لي بتكاليف الزواج، ومتطلباته؟، هز رأسه في اســـتنكار: إذن فقد استسلمت؟، لم أجبه، أردف: هل رأيت من هو أفقـــر مني؟، لكني لم ألعن ظروفي و لم أرهن حياتي، لكن كما أرادتـــني هي أن أعيشها ، قلت: لكن ربما ظروفك وطبيعتك مختلفة، رد في بساطة: ترى من جعلها مختلفة، أنا؟، لا يا بني لكنني عشتها باختلافها، لم أستسلم يومًا واقتنصت كل ما هو جميل في هـــذه الحياة، كان الوقت قد تأخر فنظر إلي وهو يغمض عينيه ويتمتم: سلطان النوم يا ولدي، تبسمت وأنا أهـــب واقفـــا وأقـــول: سأزورك غدا إذا سمحت لي، همس قبل أن يغط في نومـــه: إذا بقيت أنا إلي الغد فأهلا بـــك، هـــززت رأســـي في تعجـــب ومضيت .

في طريق عودتي ظللت أقلب كلامه في رأسي وأقارن بـــين طريقته في الحياة ونفسه بتركيبتها الغريبة، التي تتعانق فيها كـــل المتناقضات بانسجام عجيب فيحيا سعيدًا هانئ البال، وبين حياة فرضتها علي نفسي وتقوقعت بداخل إطارها باستكانة دون أن أسعى ولو لمرة واحده إلى التغير، أو محاولة الانفلات من دائـــرة الاستسلام والضعف التي ألفتها وألفتني، تساءلت في سخرية وأنا أستشعر وَهنا يخالط قلبي: أتراني قادرًا يومًا على التحليق ؟

في الصباح مررت بمكان خيمته فلم أر شيئا، اختفت الخيمة والرجل وكأنه حلم وانقضى، هممت أن أكمل طريقي إلي العمل كعادتي، لكن خطواتي تجمدت، كان هناك شيء ما قد تغير، وصدى كلماته الأخيرة تطن في أذنيّ، قفلت عائدًا وقد شعرت لأول مرة أنني أملك جناحين، وبدا نسيم الحرية يخالط كياني، ويدفعني كي أكسر الطوق الذي ضربته حول نفسي بعد أن دبت الحياة في قلبي من جديد .



آلام البغايا



تثاءبت في دلال وغنج وهي تزيح الغطاء عن جسد مرمري، تاركة وراءها جثة ممدة بلا حراك، تبسمت وهي تغمغم: التاسع، نظرت إليها في تشفٍ وابتسامة تعانق دمعة أطلت من عينيها، ارتدت ملابسها، خطت إلى الطريق، صافحت عيناها صور الدمار في كافة الأنحاء، يتجولون حاملين سلاحهم في صفاقة، تبغضهم، تتمنى لو تغرز أظفارها في أعناقهم جميعًا، تبتسم في مرارة حين يقتربون، جواز مرورها، جسدها وتلك الابتسامة التي تشي بالكثير، طول مدة مكثهم في بلادها جعلهم عطشى، تعميهم رغباتهم المحمومة، تضللهم فتنتها وجمالها، لم تتغير كانت ولازالت فتاة ليل .

عرجت في طريقها علي إحدى الحانات في محاولة لإخفاء وجهتها، خرجت بعد قليل قاصدة بيت أحد أفراد المقاومة، طرقت الباب عدة نقرات قبل أن ينفتح ويظهر أحد جنود الاحتلال بوجهه القبيح، لطمها بقسوة ثم كبلها قبل أن يصطحبها خارجًا، لمحت رفيقها مقتولا في إحدى الزوايا قبل أن

تغادر، بعد تفتيش منزلها والعثور على جثة رفيقهم مقتولا، ألقيت في حجرة مظلمة بعد أن أشبعت ضربًا، انهمرت دموعها ألمًا وحزنا، بقيت ليلتها مستيقظة قلقة لكل حركة خارج سجنها، استسلمت لأفكارها، سرحت بخيالها وهي تستعرض حياتها منذ أن وعت ما حولها واستوت مهرة متمردة على واقعها، مر شريط حياتها أمام عينيها وكأنه حدث بالأمس فقط .

لم تدّع يومًا أن ظروفها الصعبة دفعتها لهذا الطريق، لقد اختارت طريقها بنفسها، ربما تمردها المتأصل في تكوينها الأنثوي، جمالها اللافت، وتهافت كل شباب بلدتها الصغيرة لإقامة علاقة معه، ربما ساعد هذا في تحديد ما تريد، قسوة والدها وشدته جعلاها تلوذ بالفرار، حطت رحالها في بغداد، ذابت في الزحام لفترة، لكنها سرعان ما أثبتت تميزها، وتفردها، ذاعت شهرتها خاصة بين الأجانب المنتشرين في ربوع العاصمة، عاشت حياة مرفهة، ترفل في الثراء، وتحظى بحماية قوية بعدما توطدت علاقاتها بأركان القوة .

بين عشية وضحاها تبدلت الأمور، لم تفهم يومًا حرفا مما يقال في السياسة، ولم تتعب رأسها الصغير في فهم ما يدور أو سبب حرب بلادها ضد جيرانها، لكن هذه المرة شعرت بتغير

كبير، رحل كثير من أصدقائها، وانشغلت الصفوة من أركـــان الحكم عنها، ظنت أن الأمـــر آنيّ وســـتعود الأمـــور لحالهـــا، تسارعت الأحداث، ازداد تجهم الأوجه، وصارت لا تسمع إلا حديث الحرب، الكرامة، الوطنية، حاولت استيعاب الحـــدث، ذكاؤها الفطري ساعدها، شعرت بأن الوطن مهدد من قـــوى أكبر وأظلم .

أيقظتها أصوات المدافع عند الفجر بدت مدينتها وقد تحـــول ليلها إلي نهار من لهيب يتساقط بلا هوادة، شـــعرت بـــالخوف وانفجرت دموعها الحبيسة سنينا، مرت أشهر، هدأت الأمـــور قليلا، تغيرت الأحوال، وطنها محاصر، وهي محاصرة بالوحـــدة والأحزان، انشغل الجميع عنها، وضاقت بها الحيـــاة، ســـقطت مريضة وهي تشاهد وطنها يتحول إلى ثكنة عسكرية، لا عطور ولا أدوات تجميل، نحن محاصرون، لا دواء، نحن محاصـــرون، لا أمل، نحن محاصرون، أنهكها المرض، انفضت البقية الباقية مـــن حولها، تسولت لقمة العيش، وتوسدت الأرصفة .

عشر سنين مرت، استيقظت على صوت الانفجارات مـــن جديد، أضاءت سماء بغداد فلم تعد تفرق بين ليـــل أو نهـــار، استجمعت قواها، رأتهم يوزعون المؤن والسلاح على الجميـــع، دبت الحياة فيها من جديد، لملمت أشلاء نفس كسيرة، داعبتها

خيالات الماضي، تذكرها أحد كبار الضباط أثناء تجواله، تبسم في ألم، كلنا جنود، فداء لهذا الوطن المجيد، تنقلت بين سرايا المقاومة الشعبية، شعرت بأن بعضًا من آدميتها قد رد إليها، ازداد لهيب القصف وقسوته، وازدادت صلابة المقاومة، عادت الروح إليها، أيقنت بالنصر.

كانت مصدقة لكل حرف يقوله القائد، وكانت تنظر إلى أبواق الدعاية التي تبث ليل نهار على أنها الواقع والحقيقة الصادقة، وانقلب الأمر بين عشية وضحاها، وجدت المحتلين في أزقة بغداد وشوارعها، رأت بأم عينيها الدبابات تسير في الشوارع بلا رادع، بكت بحرقة، انتحبت على الوطن الذي ضاع والأمل الذي خبا، لكنها وجدت عزاءها في استمرار بعض جيوب المقاومة، انضمت إليهم وبدأت العمل من جديد، ضيق جنود الاحتلال الخناق، وجدت الحل، لتستدرج واحدًا من الجنود بعيدًا، ثم تقتله، وجدت مساعدة كبيرة من رفاق الجهاد، ازدادت خبرة وثقة، أصبحت تنفذ عملياتها لوحدها، فقط تطلب المساعدة للتخلص من الجثث لتتمكن من قتل المزيد منهم.

كان هذا الأخير التاسع الذي تتمكن من استدراجه وقتله بالسم في بيتها، لم يشك أحد في أمرها، كانت تمضي اليوم كله

في الحانة وتتقرب من هذا وذاك حتى تـتمكن مـن أحـدهم، تواعده وتصطحبه إلى بيتها، مرقده الأخير قبل أن تجهز عليـه، كانت تشعر بنشوة بعد أن تخلص وطنها من أحد الغزاة الباغين، تشعر بأن وطنها مستباح، كما هو جسدها، ربما شعورها بالعار مما هي فيه دفعها للتطهر، وكان هذا التطهر صعبا فـأرادت أن تطهر الوطن لعلها تحقق بعض الطهر لذاتها .

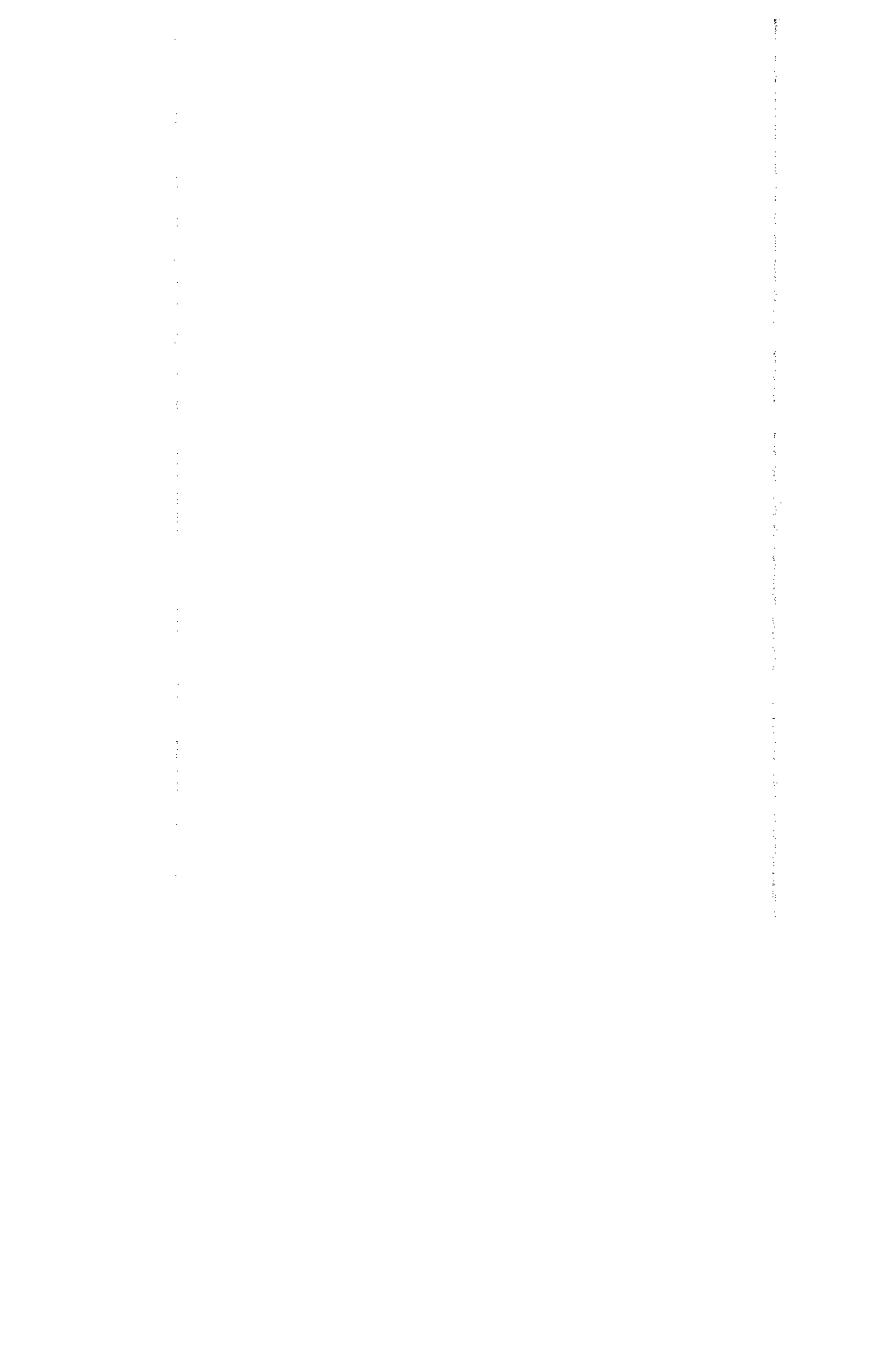
أفاقت من شرودها على أول خيط لضوء الفجـر، اختـرق نافذة صغيرة في أعلى الحائط، مسحت دموعها المنسابة، قررت ألا تظهر لهم ضعفها وآلامها، حين فتح أحدهم الحجرة عليهـا صباحا،وجدها جالسة في كبرياء، مد يده إلى صدرها بـصقت في وجهه وهي تلعنه، توعدها وهو يهم بالخروج .

أفاقت متوجعة وهي تشعر بجسدها يؤلمها، فتحت عينيهـا بصعوبة، اعتدلت جالسة تشعر بآلام الـدنيا تجتـاح الجـسد، أبصرت بعين نصف مفتوحة من آثار التورم امـرأة في الزاويـة المقابلة، تبسمت في تودد، بادلتها ابتـسامة مـذعورة بعيـنين ذائغتين، حين أمعنت النظر، وجدت حطام امرأة، آثار التعذيب، وذل العار يكسوها، لا تكف عن التلفت والبكـاء، سـألتها هامسة: أين نحن؟، أجابت في ذعر: إنه سجن بوغريب، هكذا سمعتهم يتحدثون، شعرت بالغثيان، لكم سمعت عـن فظـائع

ترتكب فيه، من يدخله مفقود لا يعلم عنه شيء، سمعت صرخات مختلطة بضحكات هستيرية، انكمشت رفيقتها وانتابتها نوبة بكاء، تعرف أن دورها آت .

انتظرت أياما عانت الجوع والخوف، جاء دورها، انفتح الباب وبرز منه جنديان بسحنتهما البغيضة، اتجها صوبها، قاما بجرها عبر الممر، صكت أسماعها أصوات الصراخ والأنين مختلطة بضحكات السكارى والشواذ من الجنود، حين وصلت صدمها المشهد، نساء ورجال عراة، بعضهم مكبل والبعض تسيل الدماء من جسده ووجهه، البعض فقد القدرة على الوعي أو استيعاب ما يحدث، والبعض الآخر غطت ملامحه علامات الذهول والانكسار، اقترب أحدهم منها سألها بلغة نصف عربية: أين باقي رفاقك؟، صمتت وهي تنظر إليه في ازدراء، أعاد السؤال وهو يركلها بقدمه، حاولت التماسك، خانتها دمعة سقطت من فرط الألم، أشار لأحدهم أن يجردها من ثيابها، صرخت وهي تنشب أظفارها في عنقه، حاول التخلص، هرع إليه زملاؤه، لم يفلحوا في تخليصه من بين يديها، واتتها قوة غريبة، أخرج سلاحه، صوبه إلى رأسها، لم تفلت يديها، صراخ الجندي جعله يطلق النار، سالت دماؤها، شعرت بالدماء تطهر بعضا منها، سقطت وابتسامة تغطي الوجه الحزين .

الرحلة



تململ في جلسته خلف عجلة القيادة ولهيب الشمس يلفحه عبر النافذة، تلفت يمينا ويسارًا يبحث عن مطعمه المفضل على بعد أمتار وجده كما هو بواجهته الأنيقة وديكوراته البحرية الرائعة، أوقف محرك السيارة، اتجه صوب المدخل، انتقى طاولة منعزلة، جلس إليها والتقط قائمة الطعام، تفحصها بسرعة فقد كان يعرف بغيته، السمك المشوي والأرز، قلب صفحة الحساء، تسمرت عيناه فوق العبارة، أعاد قراءتها ووخز بصدره يتصاعد، انحدرت دمعة وهو يتذكر رفيق عمره الذي اختطفه الموت منه ومن شبابه، الحساء الحساء، كانت دائما أولى كلماته حين يستوي جالسًا ويبدأ في تفحص قائمة الطعام، قفزت إلى مخيلته الفتاة فارهة الطول التي كان صديقه دومًا يداعبها حين تهم بتسجيل طلباتهم، التفت يمينا ويسارًا فلمحها، تبسمت وهي تتجه صوبه، كلمات الترحيب المضادة أتبعتها بسؤال عن رفيقه وسبب غيابهما لفترة طويلة، اختنقت الكلمات بحلقه، اغرورقت

عيناه، تأسفت وهي تغادر معتذرة، وضعت الطعام أمامه، شعر بغصة في حلقه وود لو يغادر، تراجع، الجوع يشتد عليه، ازدرد الطعام في غير تلذذ، هم بالمغادرة، لمحه عن بعد، تبادلا النظرات قبل أن يتجه صوبه مرحبًا، لم تتغير فيه غير تلـك الخـصلات البيضاء التي ظهرت علي فوديه، جلس إلى الطاولة، تساءل عن أخباره، وما الذي أتى به إلى هذا المطعم، رد في اقتضاب: لقـد تعودت الحضور منذ زمن ولكنها الأيام وما تفعله بنـا، كلمـا سنحت لي فرصة خلال الإجازة كنت أحضر ولكن انقطعـت منذ فترة، وأنت؟، رد ضاحكا: أنا صاحب هذا المطعم، أشـار إليه بالبقاء مستأذنا للحظات، سرح بخياله إلى السنين الخـوالي، كيف كان صاحبه هذا؟، كيف كان طموحه وحزنه لمحدوديـة إمكاناته؟، كيف تشاركا يومًـا في مـشروع صـغير أثنـاء دراستهما؟، وكيف فشل المشروع وخسرا كل ما لـديهما؟، وتلك الفتاة الثرية التي كانت تلاحق صاحبه ربما تزوجها، ربما هي سبب ما هو فيه الآن، قطع تفكيره وصول صاحبه، بصخبه كالعادة، لم يتغير عن أيام شبابه سأله مازحا: أيـن وصـلت؟، حاول كبت تساؤلاته التي ازدحم بها رأسه تبـسم في خجـل والأسئلة تلح برأسه، أردف صاحبه: ستكون ضيفي اليوم هـل لديك مانع؟، حاول الاعتذار، قاطعه: لا فائدة ستبقى معي ولو لوقت الغروب، إنه منظر رائع من كافتيريا المطعم المطلة علـى

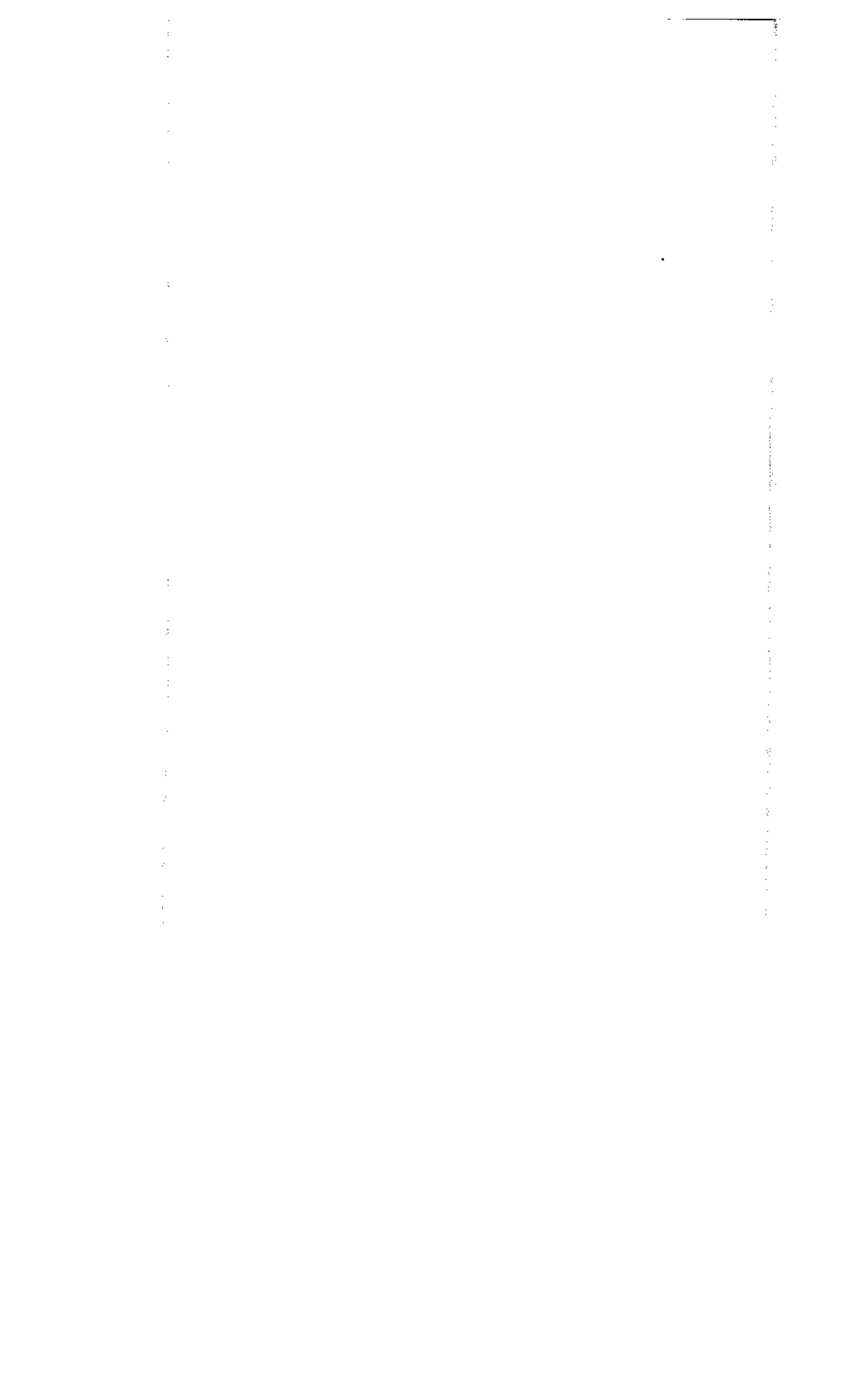
الشاطئ هيا بنا، أريد أن أعرف أخبارك، أين تعمـــل الآن؟، رد في فتور: لا أعمل لقد عدت بعد سفر وترحال وغربة استمرت عشر سنوات ومضى عام وأنا أبحث عن فرصة أستثمر خلالهـــا أموالي، حين وصلا للجهة الأخرى، عاجله بقوله: هل تـــذكر تلك الفتاة التي، لم يكمل ضحك بصوت عال نعـــم إنهـــا الآن زوجتي وأم أولادي، الفتاة التي كنت على علاقـــة بهـــا أيـــام دراستنا، تزوجت ونحن لا نزال بالجامعة، لعنت الظروف الـــتي جعلتني عاجزا عن حماية حبي أظلمت الدنيا بـــوجهي، حـــتى جاءت هي، أخذت بيدي، توطدت العلاقة بيننا،شعرت بالراحة حين فاتحتها في أمر ارتباطنا وإمكاناتي المحدودة طارت فرحـــا، يسرت لي كل شيء، حفلة الخطبة سيتكفل بها أهلها، الـــشبكة تكفي دبلتين وستقوم بتغيير كل ما لديها من حليّ ليكون ضمن ما أقدمه في حفلة الخطوبة، سارت الأمور كما أردنا، شـــعرت بالامتنان لها، لم أشعر بحب جارف كما كنت أشعر تجاه فتـــاتي الأولى، ولكني تكيفت مع الوضع الجديد، تزوجنا بعد التخرج، هدية والدها عقد عمل بإحدى دول الخلـــيج، فقـــط عـــام، لم نحتمل، عدنا والمستقبل معتم أمامنا، لم يتركنا والدها، ســـاعدنا بالمال، بدأت بمطعم صغير وشقة من حجرة واحـــدة، توالـــت الخطوات حتى اشتريت هذا المطعم، لمح ابتسامة سخرية فـــوق شفتيه، أردف: أعلم أنك رفضت وضعا مماثلا، ظروفك لم تكن

كظروفي، صمت برهة: قل لي إلى أين وصلت الآن بعد أن ذقت آلام الغربة؟، كل هذه السنين، هل لديك أولاد، لا..، بل ربما لم تتزوج بعد، وإلا لكانت معك زوجتك الآن، الحياة لا ترحم، قطار العمر لا يتوقف، صمت فجأة وهو يشعر أن ضيفه اختنق من كلماته، أسف لصراحته المفرطة، ولكن، أشرت إليه: لا تقل شيئا إنك محق بكل ما قلته، نظر إلى ساعته، هب واقفا: أستميحك عذرًا يجب أن أنصرف، ودعه على وعد بلقاء ليتعرف إلى أسرته، قاد سيارته وهو لا يعرف أين يتجه، ماذا سيفعل؟، قلب مواجعه حديث صاحبه، اتجه إلى منزله صعد الدرج، عقله ما زال منشغلا بما دار، ارتمى بجسده فوق السرير، عاودته الأفكار، هب واقفا اتجه للمرآة طالع وجهه، بعض الشعيرات البيضاء تسللت إلى رأسه في غفلة منه، تساءل بصوت مسموع، بماذا أبدأ؟، الزواج، أم العمل؟، علت ضحكته، أبدأ رائعة تلك الكلمة، البداية لا تكون لمن هو في مثل عمري، انطلق إلى حجرة المكتب التقط ورقة وقلمًا، أخذ يدوّن ويسجل، يعيد ترتيب الأرقام، كلت يداه، مزق الأوراق، لا يستطيع أخذ قرار محدد، الأفضل أن أبدأ بالعمل، ابتسم لكلمة البداية من جديد، ليكن العمل أولا، وسنين العمر، أيكون هناك وقت بعد النجاح للزواج؟، أمسك برأسه يكاد يتصدع من أفكاره المتضاربة، ليترك كل شيء للزمن همس: تلك هي

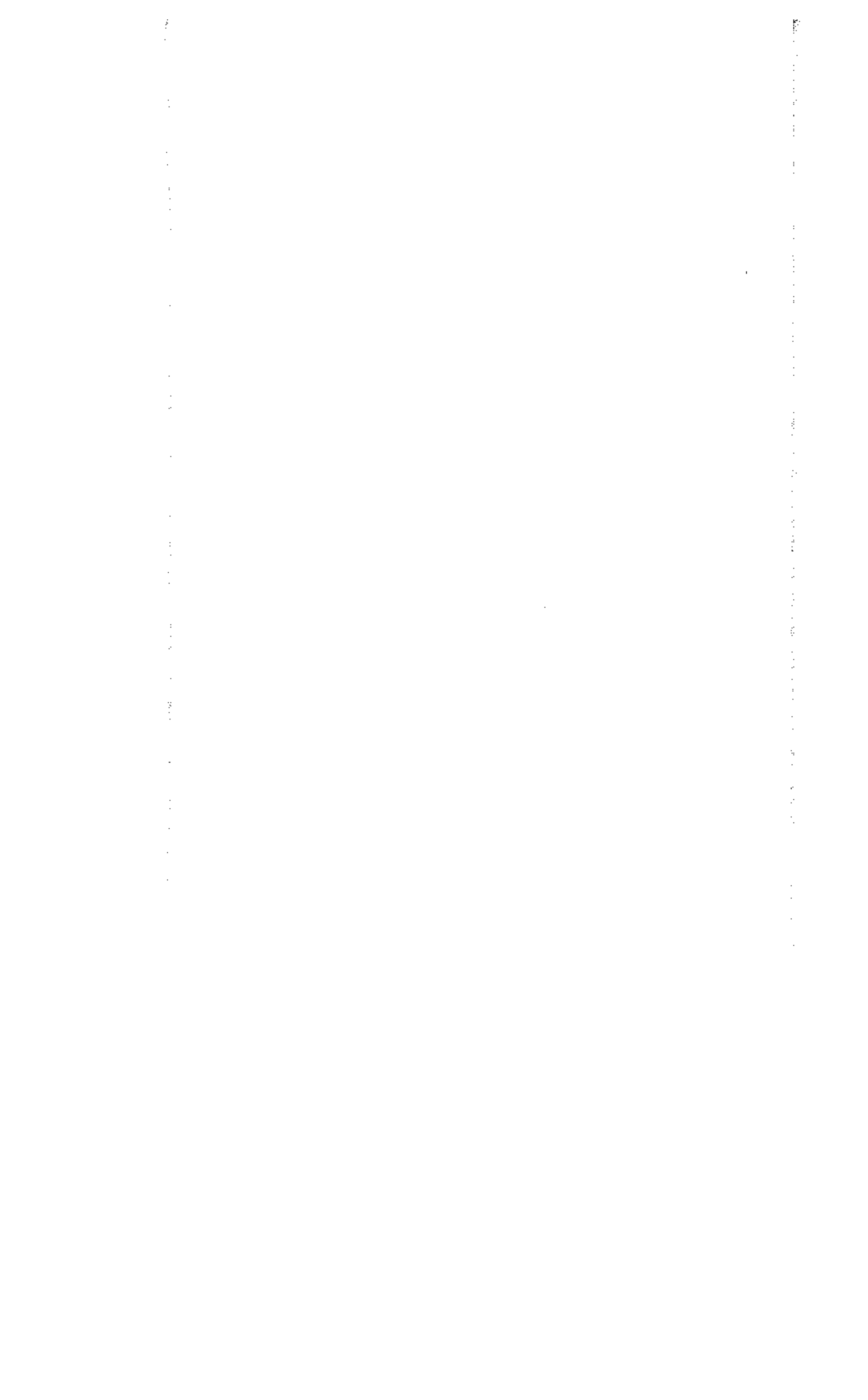
سلبيتك المعهودة، يموت كل شيء مع مرور الوقت، حتى تلتقي بصديق آخر يذكرك بذاتك، إذن فليكن العمل، حسم أمره، في الصباح ومع إشراقة الشمس نهض نشيطا، على غير عادته، اتجه للسيارة، كان سعيدًا بقراره، أخيرًا اتخذ قرارًا، أدار محرك السيارة، أخذ يستمع للأغاني المنبعثة من راديو السيارة في نشوة، حين وصل، قفز من سيارته في حيوية، اتجه صوب المطعم، وجده قابعا بين أوراقه، ألقى التحية ثم أردف في سعادة: هل لي من وقتك قليلا؟، نفض يديه من الأوراق ونظر إليه باهتمام عاجله بقوله: أود أن تساعدني لقد قررت أن أستثمر أموالي وأعتقد أن افتتاح مطعم ممكن أن يناسبني، نظر إليه في دهشة: ولكن هل درست المشروع؟ رد في ابتسامة: لأجل هذا أتيت إليك، قطب ما بين حاجبيه قليلا ثم قال في تردد: هل توافق على مشاركتي؟، لدي دراسة لتوسعة المطعم وتحديثه، كان ينقصني المال لتنفيذها، رد في لهفة ولكن سأحتفظ لنفسي بحق الإدارة، أنت تعلم أن لا عمل لي، قاطعه ليس لدي مانع فأنا لدي أعمال أخري وليس لدي وقت لمتابعة المطعم، إنني أحضر فقط للمراجعة وحل ما يطرأ من مشاكل، تراقصت الفرحة في عينيه: إذن اتفقنا، تسارعت الخطوات، سارت الأمور كما كانا يخططان لم تمر سنتين حتى انتهت التوسعة واستقرت الأمور، حين طالع المرآة وجد نفسه أصغر بعشر سنوات، عادت إليه

حيويته، تساءل في ابتسام: ألم يحن الوقت؟، هز رأسه: ليس بعد المهم تحقيق أقصى نجاح حتى أتفرغ لأسرتي، إذا تزوجت الآن لن يكون كل وقتي لهم أعجبته الفكرة، أعطى وقته لعمله، صار أكثر خبرة في تسيير الأمور، مضت سنوات ثلاث أخرى، فاتح شريكه برغبته في افتتاح فرع آخر، وافقه على الفور، اتسعت شهرتهما، لم تمض السنة السابعة حتى أصبح لديه هو وشريكه ثلاث مطاعم أخرى ناجحة، كان لا يخرج من نجاح إلا ويدخل في آخر، هذا الصباح كان منشرحًا كعادته، حين وصل إلى مكتبه وجد شريكه بانتظاره متوترًا، سأله في لهفة: ما بك؟، رد في فرح مشوب بالتوتر: ابنتي خطبت، قام إليه مهنئا: وهل هذا يقلقك أم يفرحك؟، رد: لقد حُدد الأسبوع القادم موعدًا لحفلة الخطوبة، علت ضحكته وهو يردد: لقد أزعجتني حين رأيتك ظننت أن مكروها قد حدث، بادره: لا أعرف ماذا أفعل إنها المرة الأولى؟، ربت على كتفه: كن مطمئنا لا داعي للقلق سأكون معك، مضت ترتيبات حفل الخطوبة كأحسن ما يكون سارت الأمور كما كان يتمنى صديقه، في نهاية الحفل شعر بالإرهاق، قام مغادرا، احتضنه صديقه شاكرا لكل ما فعل، مضى في هدوء، حين دلف إلى شقته طالعته صورته في المرآة، كان الشيب قد غزا رأسه بكامله، أطرق إلى الأرض، عاود التطلع لنفسه في المرآة، صدمته ثانيا، حاول النوم لم تطاوعه

جفونه، ظل مستيقظا حتى الصباح، ارتدى ملابسه، اتجه صوب المطعم، دفع الباب فتح الخزينة بصعوبة أخرج ما بها جلس يحصي، تعب، أسند رأسه للخزينة، كالعادة يغلق الباب، لا يجرؤ أحد على إزعاجه أو فتح الباب حسب تعليماته الصارمة، في المساء حضر صديقه، اتجه إلى.مكتبه، حين فتح الباب ضاحكا، تسمرت قدماه، وجده محملقا في الأموال بلا حراك .



السماء تلامس البحر



وقف ساهمًا وهواء البحر البارد يداعب ملابسه، قطرات المياه المتناثرة من ارتطام الموج بصخور الكورنيش، تطول وجهه، طفرت دمعه ساخنة من عينيه، شقت طريقها عبر وجنتيه وسقطت، عندما رفع وجهه للسماء، تساءل في حيرة إلى متى؟، زفر آهة، وصدى سؤاله مازال يتردد في جنبات الفضاء .

حتى أمس كان سعيدًا بملابسه البسيطة، حذائه الذي لم يفكر في تغييره قرابة العام، هيئته الرثة لم تكن تعني له الكثير، كان يؤمن بما يقول ويردد: المهم الجوهر، هو الأفضل دومًا، خلال الثلاث سنوات المنصرمة، محبوب، له الكثير من الأصدقاء، يفتخرون بوجوده بينهم، انتخبوه أخيرًا لرئاسة إحدى جمعيات النشاط بالكلية، ليته ما وافق .

في أول اجتماع التقاها، جميلة، هادئة، بسيطة رغم ما يبدو عليها من علامات الثراء، بعد انتهاء الاجتماع، وكـزه زميلـه وجاره في الاجتماع ثم غمز بعينه وهو يشير إليها، لم يفهم، بعد يومين التقاها، نظراتها كلها إكبار واحترام، حياهـا مبتـسمًا ومضى في طريقه، سأله صديقه بعد أسبوع: الأخبار إيـه؟، لم يفهم ما يعني، أعاد السؤال: البرنسيسة، ازدادت حيرته وطغت علامات الاستفهام على وجهه، ضحك صديقه وهو يحثه علـى الحديث: أخبارك مع بنت المليونير، تلعثم: تقصد؟؟، رد صديقه في سخرية: نعم أقصد، ألا تعرف أنها بنت صاحب أكبر مصانع الحلويات في البلد ...؟ فغر فاه في ذهول، تركه صاحبه بعد أن ضاق من صمته .

أذهلته المفاجأة لكنها أحزنته، هكـذا لا أمـل حـتى في الاقتراب منها، مرت الأيام وهي على حالها تقابله بابتـسامة، يحترق خجلا أمام نظراتها وهو يراها تهبط من سيارتها في باحـة الكلية، أثوابها لم ير أيا منها عليها لمرتين متتاليتين، اتجهت اليوم صوبه، حدثته بلهجة جدية، طلبت منه اصطحابها للقاء أحـد الكتاب الذي سيكون ضيفا بإحدى الندوات التي يقيمها واحد من الفنادق الكبرى، لقد أخذت منه موعدًا لعقد ندوة مماثلـة تشرف عليها الجمعية، يجب أن تقوم بتقديم الـدعوة بـصفتك رئيسًا للجمعية، سألها عن موعد الندوة ومكانها، ابتسمت وهي

تعرض أن تمر عليه لاصطحابه في طريقها، اعتـــذر في لطـــف، ودعها على أن يلقاها أمام الفندق .

ها هو الآن لا يفصله عن الموعد سوى نصف ساعة، فكر في هيئته الرثة وملابسه البسيطة، حاول أن يتراجـــع، أن يهـــرب، سخر من نفسه، منذ متى والهروب طريقته في معالجـــة أمـــوره، استجمع شجاعته، سار متجهًا إلى الفندق، نظر إلى ســـاعته في قلق، اقتربت سيارها في هدوء، لمحها تترل، أناقتـــها، حليهـــا، رائحة عطرها، سيمفونية رائعة من الألـــوان الهادئـــة والعطـــر الراقي، ابتسمت وهي تشير إليه، تعثرت خطواته وهـــو يهـــم بالدخول، عالم حالم، ردهات الفندق المتلألئة بأنوار كريستالية، انحناءات الموظفين مع الابتسامات الهادئة اصطحبتهم حتى القاعة التي يقصدالها، ظل منشغلا طوال الندوة، حين انتهى الـــضيف، قام الجميع لتناول العشاء علي شـــرف الـــضيف، جلـــس في مواجهته، بعد عبارات التعارف والترحيب، قدم إليه الـــدعوة، قبلها شاكرًا، ساد صمت للحظات قبل أن همس داعيـــة إيـــاه لاصطحاها في نزهة بعد انتهاء العشاء، شعر بقشعريرة تسري في جسده، سقطت منه ملعقته، اضـــطرب، حـــاول مـــد يـــده لالتقاطها، ناولته أخرى وهي تبتسم، ويدها الأخرى تصده في رقه عن الانحناء، كررت كلماها وهي تنظـــر إلى عينيـــه، زاد اضطرابه، أومأ برأسه وهو يرد بالإيجـــاب، اصـــطحبته عنـــد

خروجهما إلى سيارتها، سارت بموازاة الكورنيش، لأول مـــرة يراه من خلال زجاج السيارة، وبهذه السرعة، مختلف، مصطنع، حتى الرذاذ الذي كان يبلل وجهه افتقده، كان يشعر بأنه جزء من هذا البحر، طال صمته، ابتسمت وهي تحاول إيجاد طــرف لحديث يشق الصمت.السائد بينهما، كلماته المقتــضبة يغلــب عليها الحياء، أوقفت السيارة، ابتسمت وهي تهم بالنزول متجهة إلى البحر، تعلم كم هو عاشق له، تبعها في هـــدوء، صـــمت للحظه ثم أردف: ترى أصحيح أن السماء تلامس البحر كمـــا يظهر لأعيننا؟، ردت وهي تنظر إلى عينيه : ربما إذا كانت إرادة البحر والسماء أقوى مما بينهما من مسافة، أطرق للأرض وهـــو يردد: ليت للبحر إرادة، كالإرادة التي للسماء .

ثنائية الانعتاق والحزن

أفاق على قبلة طبعتها على جبينه، تبسّم وهو يحاول أن يفتح عينيه، حملق في وجهها، لمح بين ثنايا ابتسامتها فتاته التي عشقها يومًا، عاجلته بقبلة أخرى، همست: أحبك، أحاطته بذراعيها وهي تهمس: كل عام وأنت بألف خير، اليوم ذكرى زواجنا العاشرة، قام متثاقلا، اتجه إلى دولاب ملابسه، أخرج هديته إليها، تبسمت فرحة وهي تهم بفتحها .

كعادته جلس يحتسي قهوته في الشرفة، بعد أن أخذ حمامه اليومي، رمقها بنظرة مترددة، دق قلبها ونظراتها تستحثه على الكلام، تعرف تلك النظرة، وتعرف أن وراءها الكثير، تراجع في اللحظة الأخيرة، لم تلح، ابتسمت في رضا المغلوب على أمره، تعودت ألا تلح، قامت إلى المطبخ، تبعها بابتسامة باهتة، أطلق بصره عبر الشرفة، السحاب وخيالات البنايات التي تظهر متضاءلة عن بعد، تنهد، كيف سيفصح لها؟، يعلم مدى حبها

له، هو أيضا، كان يعشقها، أو ربما لا يزال بداخله بعضًا من حبه لها، لكنه سئم، يريد أن ينعتق، أن يغير، أن يكسر روتين حياته الذي كبله طوال هذه السنين، لكن كيف؟، لقد جعلت منه محورًا لحياتها، تستمد بقاءها من وجوده بجوارها، ربما قتلها إذا أخبرها، لقد حدثته نفسه بأن يختفي، يهاجر بعيدًا، يسافر إلى غير رجعة، لكنه أشفق عليها من البحث و.. الحزن، وها هو يشفق عليها الآن، إذا واجهها، كيف سيفهمها؟، كيف سيدافع عن نفسه؟ وكيف ستقتنع أنها ليست السبب؟، إنما هي نفسه التواقة للحرية .

خطرت له فكرة، لم لا يخبرها بعزمه على السفر لبعض الوقت؟، لكن ما حجته وإلى أين؟، حك رأسه وابتسامة رضا تعلو وجهه باحثا في ثنايا فكره عن كذبة منمقة تقنعها، نعم سأذهب لمسقط رأسي لتفقد أحوال الأرض الزراعية التي ورثتها، ولا أعلم عنها غير ما يأتيني من ريعها كل عام، حين أخبرها علت الدهشة وجهها وهي تسأله وما الذي ذكرك بها الآن؟، كان قد بدأ في إعداد حقيبة سفره، ساعدته وهي تسأله في هدوء عن المدة التي سيمضيها، تلعثم وهو يحاول أن يجد إجابة، تشعر به وقلبها يحدثها بأن هناك ثم أمر ما، ودعته بقبلة .

حين صافح وجهه هواء الطريق، شعر بسعادة غامرة ، اتجـه إلى أحد الفنادق، حين استقر في غرفته تنهد في ارتياح، همس في فرح: أخيرًا، تمدد فوق سريره، بقي على حالته المسترخية.تلك حتى غلبه النعاس .

أفاق صباحًا على طرقات أيقظته، فتح عينيه محاولا استيعاب المحيط حوله، تذكر ليلة الأمس، قام متثاقلا، همـس للواقـف بالباب: أريد فطوري هنا، بعد أن فرغ من حمامه، وجد الفطور قرب الشرفة، أخذ نفسًا عميقا وهو ينظر إلى الأفق، تنهـد في ارتياح ثم جلس، كل شيء يبدو جديدًا هذا اليوم، حين مد يده لإبريق الشاي تخيلها أمامه، تعرف كم قطعة من السكر يحـب، ومقدار الحليب، تدرك من خلال نظراته إن كان يريد المزيـد، طرد الخاطر وهو يهم بارتشاف أول رشفة، عـادت صـورها تطاردهن وضع فنجانه، هب واقفا، هرول للباب، أطلق لقدميه العنان لا يعرف إلى أين تسوقه، شعر بالوحدة، لكنه حـاول أن يستمتع بوحدته التي ينشدها منذ زمن، طالعته المحال بعروضها، أغلبها ملابس نسائية، يتذكر كيف كانت تنتقـي ملابـسها بعناية، وكيف كانت تحرص على استشارته في كـل كـبيرة وصغيرة، ها هي تعود إلى واجهة تفكيره من جديـد، حـاول التشاغل، صدمته رائحة عطر كالذي تستخدمه زوجته، قـرر الفرار إلى مكان هادئ، قادته قدماه إلى نفس المكـان الـذي

التقاها فيه أول مرة، مكانهما المفضل على مدار سنوات، حاول تغيير وجهته، كان النادل قد لمحه من بعيد وأقبل مهرولا ومرحبًا، قاده إلى طاولتهم المعهودة، وعيناه كلها تساؤل عن رفيقته الدائمة، لم يطق البقاء، هب واقفا.

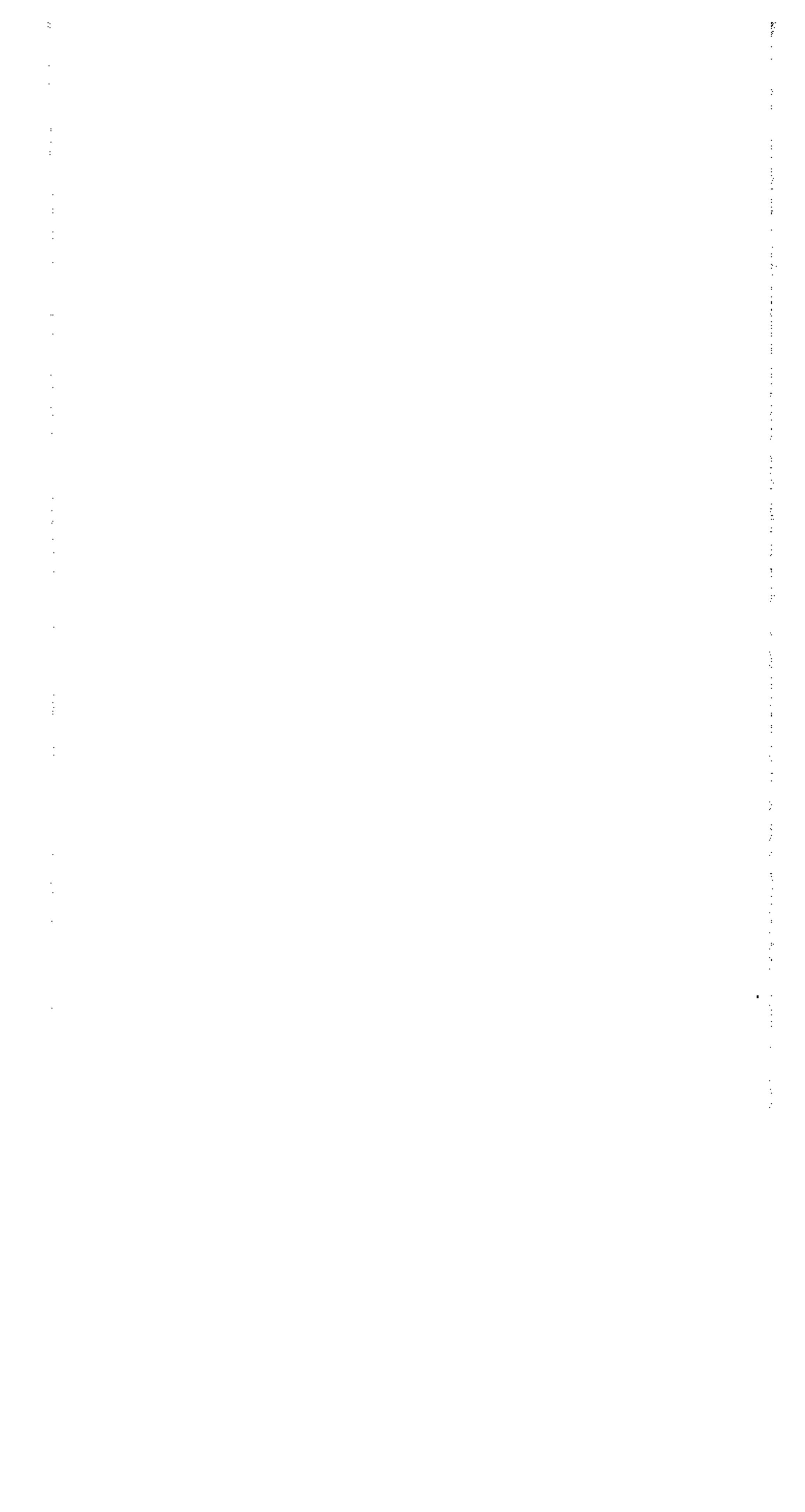
سار بهدوء متشاغلا بالحركة التي في الطريق، شعر بالجوع، مر بجوار المطعم الذي يرتادانه دومًا أسرع الخطي وهو يحاول طرد طيفها الذي يكاد لا يفارقه، هي من اختارت هذا المطعم يومًا، وقف أمام أحد مطاعم الوجبات السريعة، كانت دومًا ترفض هذا النوع من الأطعمة، وتذكره بأنه غير صحي، التهم طعامه في غير تلذذ، ضاق من نفسه كيف تسيطر على تفكيره إلى هذا الحد؟، يكاد يعايشها في كل لحظة، لمح من بعيد قهوة شعبية، لطالما حدثته نفسه بتدخين الشيشة، جلس بفرح طفولي إلى إحدى الطاولات، صاح طالبا شيشة وفنجانا من القهوة، بعد ساعة كان يهم بالمغادرة وآثار السعال لا زالت تخالط صوته .

حين بدأت الشمس رحلة الغروب، شعر بإرهاق لكنه لمح بعض الشباب يلعبون الكرة في إحدى الزوايا، ألقى بالسلام واندمج معهم في اللعب والركض، لم تسعفه لياقته، لهث بعد بضع دقائق، تنحى جانبًا، نظر إلى ملابسه وأطرق خجلا، تذكر

كيف كانت تحرص على أناقته دومًا، أسرع إلى الفندق بـــدل ملابسه، فكر قليلا قبل أن تلمع عيناه : نعم إنها فرصتي لأذهب إلى الملهي الذي رغبت في دخوله دومًا، حين دلف لفه الدخان والضحكات الماجنة الآتية من كل صوب، حـــاول أن يبـــدو طبيعيا، أن يتكيف وهذا الطقس الاحتفالي الـــصاخب، خانتـــه طبيعته الهادئة وميله إلى التأمل، فر خارجًا بعد بـــضع دقـــائق، لكزته غانية في كتفه وهو يهم خارجًا، نظـــر إليهـــا في تقـــزز ووجهها الشيطاني الماجن يطالعه في برود، خطر له طيف زوجته وهدوؤها ووقارها، بجمالها الهادئ المشع طيبـــة، ازدرد ريقـــه وحث خطاه، تنفس الصعداء حين لفح وجهه هـــواء الـــشارع المنعش، حملته قدماه المتعبة عبر الطريق، سار على غير هـــدى، أرهقه التفكير، وجد نفسه من جديد أمام الفندق، صـــعد إلى غرفته، جلس على الأريكة واضعًا رأسه بين كفيـــه، دمعـــت عيناه، انخرط في بكائه كالطفل، جمع حقيبته، غادر الفندق .

حين فتحت له الباب احتضنها بعينيه، ارتسمت علامـــات الدهشة والرضا علي وجهها، حين دلفا إلى الـــداخل ســـألته: كيف وجدتها؟، أجاب هامسًا: لم أجدها، تعجبت وهي تردد: لم تجد الأرض؟، ابتسم وهو يقبل وجنتيهـــا هامـــسًا: أظـــنني وجدتها هنا .

حديث الموج



جلست مسترخية تراقب من خلف نظارتها الداكنة أمـــواج البحر وهي تلقي بأرتال البشر مختلطة بالزبد والرمال، تبـــسمت وهي تتابع الرجل السمين بسرواله المتهدل وبطنه المترهلة يدفعها أمامه في صعوبة، حولت نظرها إلى الجهة الأخرى رأت طفلين يتقاذفان بالرمال في لهو طفولي ذكرها بطفولتها، تعالت الأمواج والصيحات، الجو الاحتفالي الصاخب على شاطئ البحر يخرجها من كآبتها ويرمي بها عبر بوابة الحلم، والـــذكريات الجميلـــة، جمهرة من الشباب في مقتبل العمر اتجهت في صخب إلى البحر، تعالت الضحكات وهم يحملون أحدهم ويقذفون بـــه وســـط الأمواج، طفلة تحاول الهرب مـــن الأمـــواج، تعـــدو تخـــتلط ضحكاتها بصراخها مع صوت الموج الهادر في سيمفونية رائعة، الموج يضرب قدميها تعاود الطفلة الاقتراب والهرب، الأمـــواج كالأيام لا تتوقف عن مطاردة الطفلة .

تذكرت يوم أن رفضت ارتداء لباس البحر، شعرت بالخجل، إنه يبدي من جسدها أكثر مما يخفيه، تجادلت هي وأمها كثيرًا قبل أن يصطحبها والدها لشراء ما يناسبها ويعجبها، كان سعيدًا بها، شعر يومها أنها قد أصبحت فتاة، لم تعد طفلة .

صوت الأمواج الهادرة أخرجها من ذكرياتها، فتاة بلباس البحر تقترب من الماء، كست وجهها حمرة الخجل، لملمت ملابسها والشعور بالخجل لأجل تلك الفتاه يكاد يقتلها، لعن الله مصممي هذه الملابس، حملقت في الفتاة التي كانت تقترب من المياه ثم تبتعد في دلال، بدت سعيدة بالنظرات الجائعة حولها، قطعتي القماش اللتين تستران صدرها وفخذيها، يبديان أكثر مما يخفيان، لونهما الأحمر مع بياض جسدها البض، لفت الأنظار، تشعر بتلذذ وهي تتمايل في خيلاء، يهتز لها صدرها وردفيها، تمنت لو تقوم تسألها عن إحساسها إذا كان لديها إحساس، نار الغضب بصدرها، لا مبالاة الفتاة بالعيون المحملقة بجسدها وهي تتمايل في نزولها إلى الماء، فاقم الغضب بداخلها، لملمت أشياءها قامت مغادرة إلى البيت .

دلفت إلى حجرتها المطلة على البحر مباشرة، خلعت ملابسها توجهت إلى الحمام، شعرت بانتعاش جميل وهي تتلقى

قطرات المياه المتدفقة عبر الدش، جففت جسدها ثم لفته بالمنشفة وهي تتجه صوب المرآة، أخذت تمشط شعرها في هدوء، نظرت إلى عينيها في المرآة، لمحت طيف حبيبها: اليوم تمضي عشرة أشهر علي سفره، كم أشتاق إليه، ليت الأمر بيدها أو يده ما كانا افترقا قط، صعوبة الحياة ومطالب الزواج، حتمت سفره كي يتم زفافهما، أتراه يحبني كما أحبه؟، كما أعشقه، بصخبه، بهدوئه، بضحكته المجلجلة، ونظرة الحزن ملء عينيه، بحيرته، بإيمانه، بكل متناقضاته أحبه، كم تغزل في عينيّ، حاولت أن أجد فيهما شيئا غير عيون الفتيات الأخريات، حاولت أن أجد ما يميزهما في نظره، لم أجد سوى ما أراه في عينيه هو، كم حدثني عن شفتيّ، ربما هما جميلتان شيئا ما، لكنه دوما يصفهما كأبدع ما يكون . قامت في دلال، دارت حول نفسها أمام المرآة، سقطت المنشفة عن تفاصيل الجسد المرمري، تحسست صدرها، سرت في جسدها رعشة وخدر، مرت بيديها فوق الخصر ثم استدارت لمحت بطرف عينها جسدها، تسارعت دقات قلبها، احمرت وجنتاها، أسرعت لمداراة الجسد خلف ملابسها التي التقطتها من فوق سريرها .

دقات علي الباب أسرعت تفتحه، ناولتها أمها خطاب وهي تبتسم في حنان، قبلت أمها ثم أغلقت الباب، ضمت الخطاب إلى صدرها أخذت تدور حول نفسها في رقصة

طقوسية تعودتها كلما وصلها خطاب منه، جلست في هـــدوء فضت الغلاف بحرص سحبت الخطاب، ورقة واحدة يا لك من بخيل، إنها المرة الأولي التي يرسل لها ورقة واحدة، مرت عيناهـــا فوق السطر، شعرت بشيء غريب، هذه المرة يحمـــل شـــيئا لم تتعوده، مقتضب، بدايته غير كل الخطابات السابقة، المرة الأولى التي يشكو فيها غربته، سوء أحواله، جلست تحاول الكتابة، لم تستطع توقفت بصدرها الكلمات، جلست ساهمة، انخرطت في بكاء مكتوم، سرعان ما علا نحيبها، أسرعت أمها إليها ضمتها وهي تسأل: ماذا حدث؟، لم تجب، ألقت بالخطاب من يـــدها، قرأت أمها، تبسمت: أهذا ما يبكيك؟، بدلا من البكاء اكـــتبي إليه هوني عليه غربته، ساعديه يا ابنتي، إنه ولا شك في محنـــة، يواجه مصاعب، اكتبي إليه، انسي هذا الخطاب الآن، أراحتـــها كلمات أمها، أمسكت بالقلم، سطرت أحلي كلمات العـــشق والحب والحنان .

قبل أن تنطلق إلى الشاطئ في الصباح التالي مرت بمكتـــب البريد، استوت على الكرسي وأمالت رأسها متجنبـــه أشـــعة الشمس، جاءت جلستها بمواجهة فتاة الأمس، رمقتها بنظـــرة غاضبة قبل أن تحول نظرها إلى الجهة الأخرى، تعجبت الفتـــاة من تلك النظرة، دفعها فضولها لمعرفة السبب، هبـــت واقفـــة اتجهت إليها، ترددت قبل أن تسألها في رقة عن ماء لتـــشرب،

حملقت بها قبل أن تمد إليها يدها بالماء، شكرتها ثم أردفت: ألم نتقابل قبلا؟، تبسمت في فتور: لا أعتقد، أردفت الفتاة: ولكني أشعر أني رأيتك قبلا، شعرت برغبتها في التعارف، ردت في لطف مصطنع: قبل الأمس لا، لكن تفضلي على أية حال، اجلسي أريد أن أحادثك في أمر، تبسمت الفتاة وهي تهم بالجلوس، همست: سها، اسمي سها ردت في دفء أمنية، جلستا في هدوء حتى وجدت أمنية نفسها غير قادرة على كبت سؤالها الذي يلح: لماذا ما ارتديته أمس؟، تلعثمت سها وهي ترد: وماذا كان بملابسي؟، ردت أمنية: ما دمت لا تعرفين فقد أجبت على سؤالي، ردت: أي سؤال تعنين؟، لا شيء، آسفة أنا مضطرة للذهاب الآن، جذبتها سها من يدها وهي تقول: أرجوك لا تتركيني هكذا، حسنا سأكون أكثر صراحة معك، إنني تعمدت لبس هذه الملابس لأشعر بأنوثتي لأشعر بأنني جميلة و..أكملت أمنية: ومثيرة ولكن أين حياؤك؟، أطرقت سها إلى الأرض وهي تهمس: صدقيني في البداية كنت أشعر بخجل عميق، لكن بعد بضعة أيام صارت الأمور عادية، أصبحت أستشعر سعادة وأنا أرى تلك العيون الجائعة تجري ورائي في نهم، صمتت لحظة ثم أردفت: ألهذا كنت غاضبة وتنظرين إلي شذرا؟، ردت أمنية في تنهيدة: لقد شعرت بالخجل لأجلك، أطرقت سها إلى الأرض: ربما أكون قد أخطأت ليس في حق نفسي فقط وإنما في حق كل

فتاة، هبت واقفة مستأذنة، نظرت إليها أمنية في رقة، همست: سأتركك الآن تذهبين على أن نلتقي في الغد، أنا آتي هنا يوميا، ودعتها في ابتسامة، راح قلبها يخفق في سعادة وهي تتمنى أن تجد في سها الصديقة التي تتمناها، أمضت أمنية يومها في التحديق لموج البحر وهي تسترجع ذكرياتها، حين مالت الشمس للمغيب جمعت أشياءها وغادرت عائدة، في صباح اليوم التالي التقيا على الشاطئ، تحادثا كثيرًا، شعرت أمنية براحة وهي تحدثها وتسمع منها، حديثها عن خطيبها، سفره وخطاباته، كل هذا جذب سها، أنصتت في لهفة لقصة الحب التي ترويها أمنية بدفء، كم تمنت سها أن تعيش تلك المشاعر، سرحت بأفكارها، هزتها أمنية ضاحكة: إلى أين وصل؟، ضحكت في دلال: إلى فارس الأحلام بفرسه الأبيض، ردت أمنية: خيالات أم أحلام؟، قاطعتها سها: ليتها تتحقق، ضحكت أمنية وأردفت: الفارس الحقيقي هو من يسعى للارتباط بك، ويقلب الحلم إلى حقيقة تضمكما في بيت واحد، همست سها: يخيل إلي حين تتحدثين أنك تكبريني بسنوات، علت الضحكات واختفى الصوت ممتزجًا بصوت هدير الموج الذي كان قد بدأ السرد .

سقط الجان

بعد عناء يوم شاق من العمل، وجدتني ألقي بجسدي المنهك فوق سريري، لم أدرك كم مر علي كي أستغرق في نومي، شعرت بيد تعبث بشعري، ظننتني أحلم، غلبني النعاس من جديد، عادت اليد تعبث برأسي، فتحت عيناي بصعوبة، انتفضت قائمًا، ألجمت لساني المفاجأة، وجدتها بجواري تبتسم في دلال، خلتها حورية،لمحت شيئا غريبا في عينيها، حاولت التحدث، شعرت بقشعريرة تسري في جسدي، لمستها بيدي، اقتربت أكثر، حرارة جسدها، ابتسامتها العذبة شجعتني على الدنو منها وتقبيلها، أغمضت عينيها وأخذت نفسًا عميقا، اعتدلت في جلستي، نظرت إلي نظرة ملؤها الحب، حاولت لتحدث من جديد، وضعت يدها فوق فمي تسكتني، لثمتها، سحبتها في خجل، ظللنا جالسين ننظر لبعضنا البعض صامتين، سمعت أذان الفجر قمت إلى النافذة أفتحها تبعتني بعينيها وهي

لازالت على صمتها، عند التفاتي لم أجدها، اندهشت فتـــشت
كل ركن في الحجرة، ناديتها لم تجب، غمرتني الحيرة، بقيـــت
طوال اليوم أفكر، غلب على ظني أنه لم يكن ســوى حلـــم،
وودت لو تكرر الحلم، كان بصدري الكثير من الأسئلة، ظلت
أسئلتي تطاردني وبقيت قابعًا في سريري، جفاني النوم وســيطر
علي طيفها، قبل أن يتملكني اليأس، وجدتها تقــف في طــرف
الغرفة، أصابتني رعشة، لكنها بابتسامتها الهادئة أنستني رعــب
المفاجأة، همست في دلال: أوحشتني، أشرت إليها أن تقتــرب،
تبسمت ودنت مني، جلست بقربي، وطــدت العــزم ألا أدع
الفرصة هذه المرة تفوتني، لمحت بذكائها البادي في عينيها كــم
الأسئلة المتقافزة على وجهــي، أطرقــت إلى الأرض وبــدأت
تتحدث في حزن: لقد أحببتك بكل جوارحي عــشقتك مــن
زمن، كنت أراقبك ليل نهار، حركاتك، سكناتك، في صحوك
وفي منامك، كنت أقضي الليالي بجوارك أتطلــع إلى وجهــك
الطفولي وأنت نائم، كنت أجلس أمامك وأنت تأكل، أستمتع
بالنظر إليك ومراقبتك، لكنك لم تشعر بي يومًا، كــان هــذا
يحزنني، لم أستطع الصبر، قررت الظهور برغم ما ينتظرني مــن
عقاب وطرد، حبك بداخلي أغلى وأقــوى مــن أي شــيء،
صمتت لبرهة، ونظرت إلي، كنت مشدوهًا فــاغرًا فــاهي في
بلاهة، لطالما سمعت عن حوريات الجن اللــواتي يعــشقن بــني

الإنس، كنت أهزأ من كل الحكايات وأظنها تخاريف أو قصصا من خيال قائليها، صدمتني المفاجأة، لم أحرك ساكنا، هبت واقفة، طبعت قبله فوق جبيني، تركتني مع حيرتي وذهولي وذهبت، لم أنم تلك الليلة، قضيت نهاري مشتت الخاطر، في نهاية اليوم انتابتني حيرة، انتظرتها بشغف، لكني لم أكن أدري كيف سيكون لقاءنا، ماذا سأقول لها؟، انتظرت الليل بطوله، لم تأت، مرت خمس ليال وأنا أنتظر، ساءت حالتي، بقيت بالبيت، لم أعد قادرًا على التركيز في عملي، في الليلة السادسة، تسللت إلى الغرفة كطيف جميل، قمت إليها احتضنتها بين ذراعي، لمحت دمعة في عينيها، سألتها: لم الدموع ولماذا تأخرت عني؟، لم تجب، ألححت عليها، رفعت رأسها إلى أعلى، تحدثت وهي تغالب دموعها: لقد حاولت الابتعاد، لكني لم أستطع، حين التقيتك آخر مرة، شعرت بأنني كنت أطارد سرابًا حين طاردت طيفك كل هذه السنوات، وأن حبي قد ذهب سدى، حين رأيتك والاندهاش يغطي وجهك، حين صمت وكست وجهك الصدمة انسحبت، أدركت أنك لن تتقبلني، لكنني لم أستطع البعاد، حين عدت اليوم رأيت الحزن في عينيك، قررت أن أظهر لك ثانية، ألقت برأسها فوق كتفي وأخذت تنتحب، احتضنتها برفق، همست لها: لقد أحببتك مذ رأيتك، لن أدع شيئا يفرق بيننا، رفعت رأسها ونظرت لوجنتيها، أخذت يدي بين يديها

وقبلتها، مسحت دمعة علقت فوق وجنتيها، مضت أيامنـــا في سعادة، لم أتخيلها ستنقطع، ازدادت عرى الحب بيننا وتوثقت، لم يشب صفاء علاقتنا سوى أمور وجدتها حينها بـــسيطة فقـــد أهملت عملي، وانقطعت صلتي بالله، فلم أعد أصلي أو أحرص على القيام بما يوجبه علي ديني من عبادات . ظلت هي سعيدة بعلاقتنا وبات حبها يزداد، وتتفنن في إيجاد السبل لإســـعادي، لكنني كنت أجدني وشعور بداخلي يؤلمني وأنا أتغـــير، تملكـــني الضيق بعدما هجرت طاعة الله، أصبحت عصبي المزاج، أثـــور لأتفه الأسباب وأغضب، وكان حزني يزداد وأنا أراها تغفر لي ولا تغضب مني، أو تعاتبني، مضت الأيام وحـــزني يـــزداد، لم أعرف سببًا محددًا لما أنا فيه، لكنني لم أكـــن ســـعيدًا، حـــتى اللحظات التي كنا نمضيها سويا، لم تعد كما كانت، وطـــدت العزم علي إيجاد مخرج لما أنا فيه، ذهبت لإمام المسجد أســـررت إليه بحكايتي، تبسم في هدوءٍ همس بصوته الممتلئ إيمانا وثقـــة بالله: عد لربك يا ولدي، تمسك بدينك واصبر، أجعل ثقتـــك بالله هي ملاذك، تسللت إلى نفسي سكينة لم أستشعرها منـــذ زمن، قمت توضأت وصليت ركعتين، حين دخلت البيـــت لم أجدها في انتظاري كعادتها، جلست إلي القـــرآن نهلـــت مـــن حروفه ودموعي تنهمر، هدأت نفسي، قمت إلى المذياع أدرت المؤشر، جاءني صوت المقرئ عذبا يتلو آيات الله، مرت ليلتين،

بدأت أعود إلى حالتي الأولى، ذهبت إلى عملي صباحا، وقد انتظم إيقاع حياتي من جديد، ازددت قربا من الله، أدركت أن الخلاص في صدق الإيمان، أحيانا كانت تلوح لي كطيف حزين، لكنها تتوارى خلف فيضان من الدمع، كنت أسارع للصلاة أو القرآن .



قصر الأحزان

في نهاية الطريق المؤدي إلى المزرعة التي كان خالي يملكهـا، كان يطل القصر بقبته وعظمته التي توحي بأنه شيد في القـرون الوسطى، كنت حين أذهب إلى المزرعة يستوقفني القـصر، لم أمل النظر إليه، كان به سحرًا وغموضا، يزداد غموضـه مـع الأشجار الملتفة حول أسواره الضاربة في الطول، لم تمتـد يـد لتشذيبها، الحكايات المتداولة عن القصر قليلة، لكن المؤكد أنـه لأرملة تعيش مع ابنتها، منذ زمن طويل، أبواب حديقة القـصر لا تفتح سوى مرتين مرة صباحًا وأخرى عند الظهيرة حين يعود العم سليم ذو القامة الطويلة المحدودبة حاملا ما اشتراه من سوق البلدة القريبة، حاولت مرارًا أن أسـأل خـالي عـن القـصر وساكنيه، لم أحظ بإجابة، كان يمط شفتيه ويهز كتفيه معربًـا عن جهله بأية معلومات تخص القصر أو سكانه، تبسم مرة وهو يسألني في دهشة: ولماذا يشغلك هذا القصر لهذا الحـد؟، لم ادر بما أجيبه سوى بابتسامة باهتة .

مرت الأيام وكلما مررت يلح علي خاطر باقتحام أسـرار هذا القصر، واتتني الفرصة حين تقابلت مصادفة والعم سـليم أثناء خروجه من البوابة، في الستين من عمره، أسمـر البـشرة، نقشت الأيام على وجهه تجاعيد غائرة لم تستطع إخفاء صـفاء بسمته وهو يطالع الشغف بوجهي، جمعنـا الطريـق الوحيـد الصاعد إلى البلدة، صمت برهة قبل أن تتمتم شفتاه بسؤال بدا لي كأنه يحادث نفسه، فطنت إلى كلماته حين أعادها بـصوت عال، أردفت: مجاوبًا نعم أنا قريب صادق بيه، ابن أخته، تبسم وهو يحث الخطى، باغته بسؤالي: كم لك من السنين وأنت هنا، سرح ببصره وكأنه يحاول عد السنين، همس في لطـف: ربمـا ثلاثون سنة، أردف: الطريق طويلة إلى سوق البلدة، ألمح شغفا على وجهك، سأقص عليك حكاية قدومي إلى هنا، إذا كـان هذا يهمك، سارعت بالرد في لهفة: ليتني أعرف قـصة هـذا القصر، أقصد قصتك معه، عادت ابتسامته للظهـور وصـوته الهادئ يسرد .

منذ ثلاثين عامًا كنت شابًا أبحث عن عمـل، درت يمينـا وشمالا، رمت بي الأيام عند أحد البشوات، عملت لديه سنتين، حين جاءت الثورة أتت على أمواله، كان قد أحـبني لأمـانتي وإخلاصي معه، فكر في ترك البلد والرحيل إلى خارج الـوطن، حين أخبرني شعرت بالحزن، لم أتفوه بكلمة، لكنه كان معـي

نبيلا إلى أقصى حد، حادث صديقه صاحب هذا القصر الــذي أعمل به الآن، أوصاه بي خيرًا، جئت إليه و لم يمض وقت طويل حتى صار يثق بي كل الثقة، تضاءلت ثروتــه وتركــه أغلــب العاملين عنده، وبقيت أنا، زادت الصلة بيننا لم يشعرني يومًــا أنني خادمه، كنت آكل مما يأكلون منه، يشركني في أمــسياهم هو وزوجته وابنته، عاملني كفرد من أسرته، وبقيت أحمل لــه جل احترامي وأعامله بما يستحق من احترام وتقدير، كان به من بقايا الماضي ما يسعده بتبجيلي له، وكنت أرى فيه رمزا كــبيرًا من زمن ولي، وأبقاه هو كنفحة من عبق زمان عشقه وعشقته، أعادت له الثورة بعضًا من أملاكه وأمواله، انتعشت حالته لكنه لم يفكر يومًا في العودة لحياة البذخ التي كان يحياها و لم يفكر في استقدام خدم غيري، كانت زوجته رائعة الجمال وكذا ابنتــه التي ورثت جمالها عن أمها، شعر بأن الأيام عادت لتضحك لــه واستمر في رقته معي، كان يذكرني بالزواج كل فترة ويشجعني بأنه على استعداد لتحمل كافة النفقات، وكنت أنا من يختلــق الأعذار ويتهرب، لا اعلم لم؟، ربما كنت سعيدًا بحياتي هكــذا وأشعر بأهمية ما أقوم به وأنا أشرف على كل كبيرة وصــغيرة بالقصر، بل وأهتم أيــضا بابنتــه شــاهيناز، ولأن الأيــام إذا ضحكت لا تطيل الضحك فقد فاجأنا مرضه، شعر بدنو أجله بكى على ذراعي، استحلفني ألا أترك زوجته وابنته، أقسمت له

ودموعي تغطي وجهي، فارقتنا روحه في نفس الليلة، ذهلت زوجته، اقتربت من حافة الجنون، ابنته أصيبت بالشلل حزنا على والدها التي كانت تحبه بجنون، انقلب الحال، وجثم الحزن على كل من بالقصر، مرت الأيام ونحن نجتر أحزاننا، لم يفلح شيء في إخراجنا من دائرة الحزن، يطبق علينا القصر بجدرانه، حادثت السيدة أن تبيعه، وأن ننتقل لمكان آخر، رفضت رفضا قاطعًا، بكت وهي تسرد لي كيف احتوت جدرانه قصتهما معًا من أول يوم تزوجا، وكيف أن لكل ركن ذكرى حلوة، لم أستطع إقناعها، غضبت، خيرتني أن أرحل ولن تلومني إذا كانت هذه رغبتي، بكيت وانصرفت، و لم أعد أفاتحها في هذا الأمر، أوقفت حياتي على خدمتهما هي وابنتها القعيدة، توقف عن السرد التفت إلي، كانت دموعي تشق طريقها عبر وجنتيّ ولسان حالي يقول: ليتني ما سألت .

طائرة ورق

في هدوء وضع له الساعي فنجان القهوة، تثاءب وهو يعدل وضع نظارته تطلع إلى الساعة، تنهد في ضجر، قام متثــاقلا إلى النافذة، ضرب بيده على صدره، همس لنفسه: متى؟، استدار إلى زملائه، لمح ابتسامة باهتة على ثغر زميله، عاد إلى مكتبه، تملكه الضجر، احتبست دمعة بعينه، دس رأسه في الجريــدة، ســرح بخياله، تساءل: إلى متى؟، لقد وعدني أخي، مرت سنة، لم يرسل لي، علا صوته قليلا وهو يرد: لقد وعدني، انتبه لنفسه، تلفــت لمح نفس الابتسامة، ازدرد ريقه، هب واقفا، اتجه صوب مكتب المدير، خرج وبيده ورقة، همس في ارتياح: أخيرًا لدي إجــازة، في طريقه إلى المترل لمح شاطئ البحر، بدت له الفكرة رائعــة، دلف إلى مترله في نشاط، فرك يديه، جمع أغراضه غادر متجهًــا إلى الشاطئ .

الجو حار إلا من نسمة تراوح مع الموج، زفر بعمق، نظــر إلى السماء وزرقتها الرائعة، لمح في الأفق طائرة ورقيــة، هــبط بناظريه، صبي يمسك بطرف الخيط، تعلو وجهــه ابتــسامة في

كبرياء، تبسم وهو يعاود مراقبة الأمواج، سرح بخياله، تـــذكر أخاه حين سافر، الطائرة، كلماته حين ودعه، حين وعده بعقد عمل، دائمًا تصل رسائله محملة بالأعذار، بعبارات الصبر، مرت سنة، ترى لو كانت هناك فرصة، لماذا لم تأت؟ يجب أن أكف عن التفكير في الأمر، لكن كيف؟، راتبي، آه وهل أسمي هـــذا راتبًا؟، ربما، اقتربت إجازة أخي، ربما، التفت إلى صياح الصبية، الطائرات الورقية صارت ثلاثا، رجل في الثلاثين يمسك بطرف الخيط لإحداها، تبسم، عاود النظر إلى الأمواج شعر بإحبـــاط، أغمض عينيه، تناهى إلى سمعه عبارات غزل، تبسم فتح عينيـــه، التفت جهة الصوت، شاب في العشرين، يجلس متباعدًا، فتـــاة ممدة بلباس البحر، تبتسم في دلال، تدير وجهها، تحاول إخفـــاء سعادتها، مرر نظره فوق جسدها المدد، ازدرد ريقـــه، انتقـــل بسرعة إلى الرمال، حاول اختلاس نظرة أخرى، كأنـــه يـــرى أسرار الأنوثة لأول مرة لمح عينيها، نظراتها مزيج من النـــشوة والغرور اعتدلت جالسة، هرب من نظرتها الجريئـــة، الطـــائرة الورقية تهبط، عبثا يحاول الصبي رفعها، اقتربت الفتاة، في تكسر سألته عن الساعة، رد في اضطراب: الواحدة، أردف: أتنتظرين أحدًا؟، استطرد في خجل: آسف لتطفلي، شـــجعته نظراتهـــا الباسمة،ردت: لا، أنا أعيش مع جدتي بعد سفر والديّ، عـــدل من وضع نظارته، أردفت: أنهيت دراستي بكليـــة الآداب هـــذا

العام، في انتظار عمل، أو.. ضحكت وأطرقت للأرض، ابن الحلال، رد محاولا ألا ينقطع الحديث: أنا محاسب، أعيش بمفردي أيضًا، ليس لي في هذه الحياة سوى أخي، قطع حديثه صياح الصبية، التفتا، الطائرات الورقية تشابكت،ضحكا ضحكة طفولية، مرت فترة صمت، قطعها سائلا: هل ترغبين في السباحة؟، أومأت موافقة، خلع ملابسه، وضع النظارة جانبًا اتجها إلى البحر، ابتعد، مستعرضًا براعته في السباحة، حاولت اللحاق به، لم تسعفها مهارتها، اقترب أمسك بها، احمرت وجنتاها شكرته باسمه أمسك بيدها، اتجها إلى الشاطئ، ارتمت بجسدها على الرمال، جاورها مبتسمًا، نظرا إلى السماء، تعلقت أنظارهما بالطائرة الورقية الباقية محلقة، قطع الصمت قائلا: أأستطيع رؤيتك الليلة؟، اعتذرت، أردف بسرعة: غدًا إذن أنا آتي إلى هنا كل يوم .

في الغد كان اللقاء، حادثها بكل ما يجول بصدره، فتحت قلبها لكلماته، مرت الأيام توطدت العلاقة، فاتحها برغبته في الارتباط بها، طار قلبها فرحا، اتفقا على الانتظار، حان موعد حضور أخيه، لكن لم يأت، حدد وعده في خطاب، تشابكت أيديهما في الطريق إلى الشاطئ، الطائرات مازالت هناك تحلق، نفس المكان، يحلمان، مرغمان والرفيق الانتظار، يحلمان بالسفر

يحلمان بالطائرة، يحلمان، حين وصلا اليوم إلى الشاطئ لم يجدا الصبي، السماء خالية، بحثا في كل الاتجاهات، لا شــيء، بعــد برهة لمحا الصبي، يتهادى بخطواته مقتربًا، سألاه في لهفــة: أيــن طائرتك؟، أطرق إلى الأرض، أجاب في أسى: كسرت، تبسم، ثم أدار ظهره ،،، ردد وهو يغادر: إنها ورق ورق، ورق .

عزف على أوتار الغربة

علا صوت ساعي البريد أسفل البناية، انتفضت مسرعة، هبطت السلم، خطفت الخطاب من يده، رمقها بابتسامته الباهتة وهو يغادر، قلبها يدق بعنف، فتحت الخطاب، احتضنت عيناها حروفه، احمرت وجنتاها في ابتسامة عذبة، تنهدت في ارتياح، همست: أخيرًا أنصت لصوت قلبي، سيعود، سرحت بخيالها، همست: باق عشرون يومًا، هبت واقفة، تغير، تبدل، أدفأت المكان بأناملها، أشرقت شمس أيامها، تخيلته في كل ركن من أركان المكان، استرجعت حركاته سكناته، ماذا يحب، كيف يعايش اللحظات، تمنت لو يفي بوعده، أن يبقى، أرهقها البعاد، قصمتها المسؤولية، لم تعد تحتمل الوحدة، هموم أولادهما، تشعر بيد الزمان تطولها .

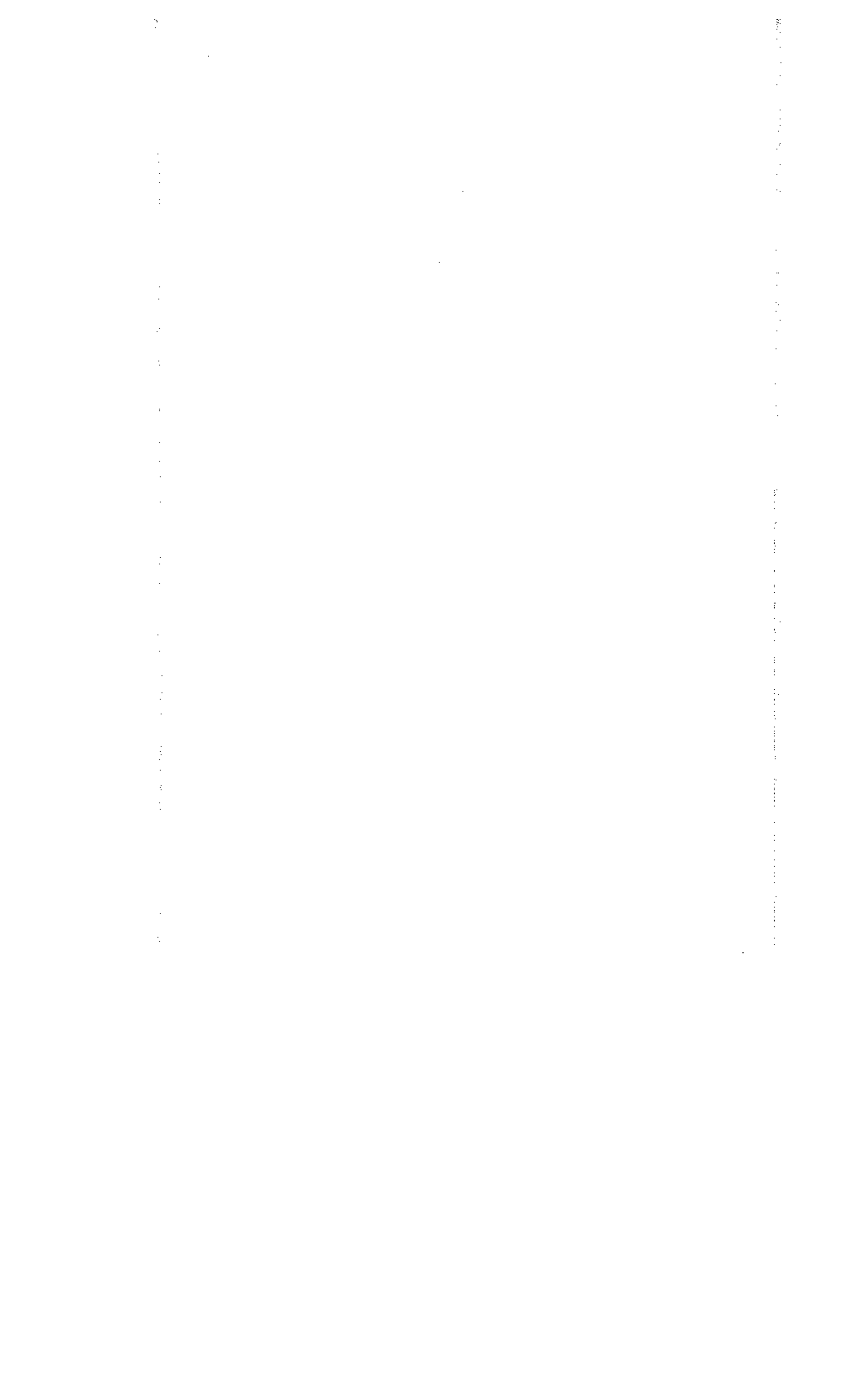
باق يومان، طافت بأرجاء البيت، تبسمت راضية، أظنها جنته التي رأيتها في عينيه دومًا، سيبقى، أولاده يحتاجونه، أطرقت للأرض: وأنا، وأنا كم أشتاق إليه .

ألبست الأولاد ثيابهم، انتظرت مرور الدقائق، طرقات الباب أطارت لبها، دلف في صخبه كعادته احتضنهم بعينيه قبـــل أن يحتوي الجميع بذراعيه، انتظرت حتى وزع الهدايا، لم ترغب في شيء سواه هو هديتها الكبرى، حـــين احتوتهمـــا غرفتـــهما، سبحت في عينيه، أبحرت معه إلى آخر بلاد العـــشق، عـــبرت شفتاه إلى أعماقه، اعتصرها كمزنة استوائية تتقـــاطر عـــشقا، أعادها موجه الهادر إلى سنوات زواجهما الأولى .

مرت أيامهما كسفينة تبحر في بحر الأحلام، يتقاسمان العمر، يتسامران في سعادة .

لمعت دمعة بعينيه، ربت على كتفيها في حنـــو تـــساقطت الكلمات من فمه ثقيلة، حان موعد الرحيل، تعلم أنه حتمـــي، لكنها أرادت إبقاءه ولو لبضعة أيام، فغر ثغره عن ابتسامة، وهو يردد: ثم بعد؟، لمعت الدموع بعينيها، احتضنها، ضمها لصدره، يشعر بدموعها كسياط تجلد قلبه، تنهـــد، داعـــب خـــصلات شعرها، قبلها وهو يمسح لؤلؤ عينيها المتناثر دمعًا، همس: يكفيني ألم البعاد عنكم، غربتي غالية، لكنها لأجلكـــم، أطرقـــت إلى الأرض، همست في انكسار: ولكن إلى متى؟، قلب شفتيه، أومأ: لا أعلم، ربما لنهاية العمر، طفر الدمع مـــن عينيهـــا، حـــاول التماسك، خانته عيناه .

عطر جارتي



في البدء كان عطرها، ظللت أتعجب يوميًا وأنا أشم هـــذا العطر المفعم كلما مررت بباب شقتها، لم يمض سوى أســبوع على سكنها بالبناية، في طريقي لشقتي التي تعلو شقتها يستوقفني نفس العبير كل يوم، لم يكن عطرًا عاديًا، بل عطرًا أنثويًا أخاذا يستوقفك، يعابثك، يهدهد مشاعرك، يستثيرك .

فكرت أن أرى صاحبة هذا العطر، تراجعت، ظهــرت لي الفكرة صبيانية، اكتفيت بالوقوف لحظات كلما مررت ببــاب شقتها، استولت على تفكيري، تخيلتها من خلال عطرهـــا، في العشرينيات، ناهدًا، ذات حسن، بل هي أجمل الجميلات، تشع دفئا، تنبض حيوية، عايشتها بقلبي وعقلي، عقدت العزم علــى رؤيتها، الحديث معها، ماذا سأقول لها؟، لا أدري، ربما فقــط سأبدي لها إعجابي بذوقها في اختيار العطر، أو ربما فقط ألقيت التحية، مكثت شهرًا أحاول تغـــيير مواعيـــد حـــضوري، لم

أصادفها، مررت بشقتها في كل وقت، عاودت الصعود والنزول مرات، بقي الباب موصدًا، سئمت الانتظار زاد شوقي ولهفتي لرؤيتها، أصبحت شغلي الشاغل .

مرت أسابيع تملكني الشوق أكثر تعجبت من حالي، كيف استولت على تفكيري بعطرها إنني حتى لم أرها، حاولت صرف تفكيري، تشاغلت بعملي، لم تفلح حيلتي، ظللت على عادتي، أتوقف برهة كلما قاربت بابها، أتلفت يمينا ويسارًا، أواصل الصعود إلى شقتي .

عند عودتي اليوم لمحت عجوزا تجرجر قدميها صاعدة الدرجات، اقتربت منها، أسندتها بيديّ، تبسمت شاكرة، نفس رائحة العطر، لابد وأنها جدتها، واصلت الصعود معها بخطواتها البطيئة، ألجمني الفرح، لقد حانت ساعة اللقاء، طار قلبي فرحًا، تراقصت ضلوعي، وصلنا باب الشقة، أخرجت المفتاح بصعوبة، دعتني للدخول، لم أتردد، ارتميت بجسدي المنتفض فرحًا على أحد الكراسي، استأذنت دقائق، ما عدت أطيق الانتظار، ربما ذهبت لتخبرها بوجودي، عادت بخطواتها البطيئة، بيدها كأسًا من العصير، ناولتني إياه، حاول لساني النطق، السؤال، منعني الخجل، قالت في هدوء: أظنك جارنا، أومأت برأسي، أردفت لقد رأيتك مرة عند انتقالي لهذه الشقة، كما

ترى أنا أعيش وحيدة بعد وفاة زوجي، لم نرزق بـــأولاد و.. لم أسمع كلمة بعدها، أذهلتني المفاجأة، إذن فهذه فتاة أحلامـــي، امرأة العطر، نهضت واقفا، اتجهت صوب الباب، علت الدهشة وجهها، صمتت في خجل، تلعثمت وهي تقول: هل ضـــايقتك يا ولدي؟ هل قلت ما يغضبك؟، لم ألتفت، أسرعت خارجًـــا، ساخرًا من نفسي، تركتها لتساؤلاتها ودهشتها !!!!.



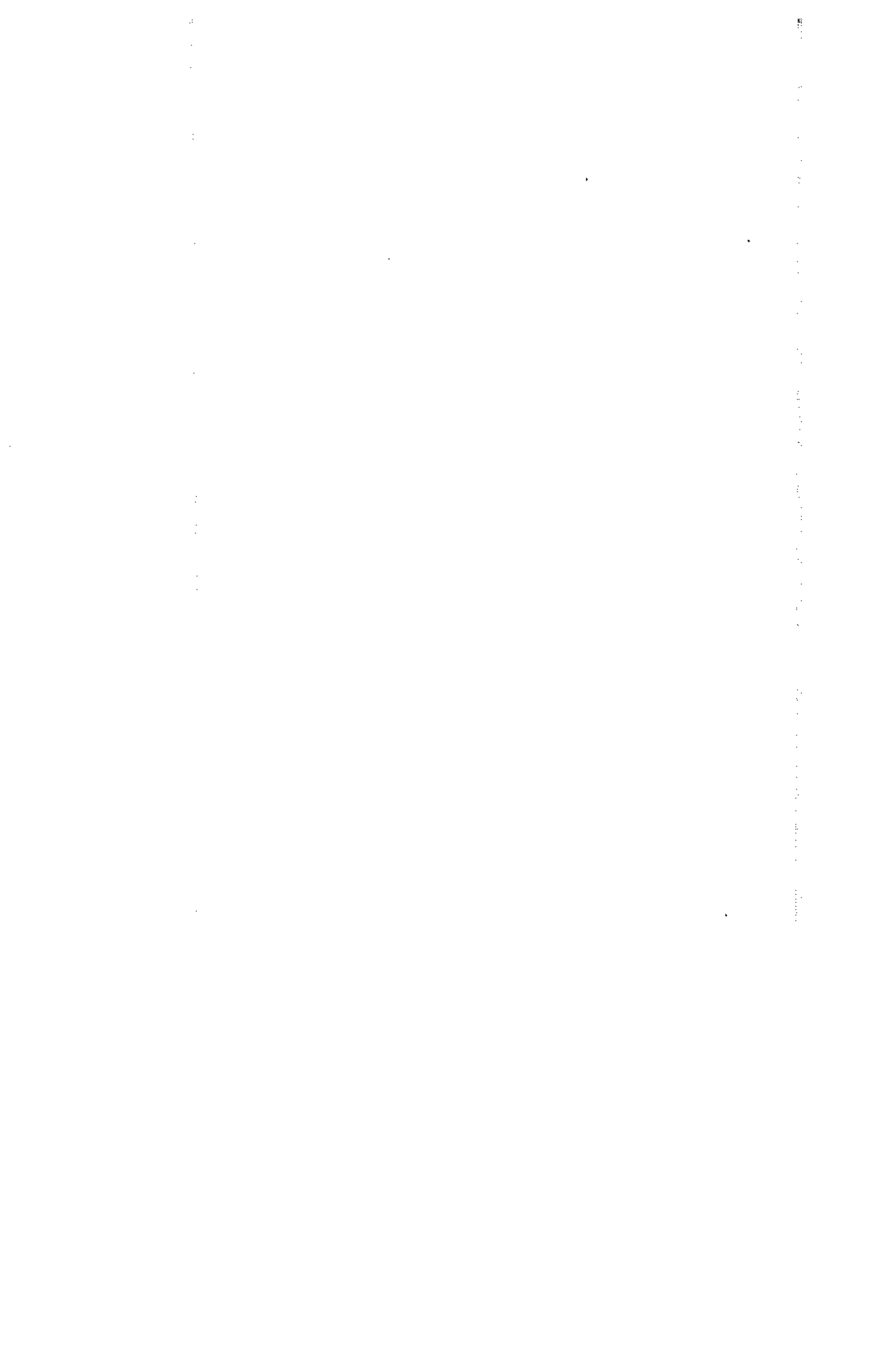
كذب على ورق



تتناول القلم في خفة وتبدأ في كتابة رسالتها: أريدك أن تعرف أنني فكرت كثيرًا قبل أن أصل إلى قراري هذا، لقد سئمت تلك الحياة ما عدت أطيق، لم تسألني يومًا، لم تغضب يومًا، لماذا لم أغسل قميصك؟، هذا الطعام سيء، ملحه قليل، لن نذهب إلى السينما، أنا متعب، ليت هذا يحدث ولو مرة، لقد تعبت من رضاك بكل ما أفعل، لماذا لم تغضب يومًا، لماذا لا تثور بوجهي؟ يرضيك كل شيء، حتى إهمالي في هندامي تغفره لي، أكاد أجن، لم تمتد يدك علي مرة واحدة، لم تفكر حتى في سؤالي لماذا خرجت بدون إذنك، لم تفكر في رفض مطالبي المستمرة بزيادة المصروف، أتدري لماذا لم أذهب معك أمس للمسرح؟، لأنك وافقت بمجرد أن طلبت منك ذلك، أرجوك اصفعني، كشر لي عن أنيابك ازجرني، توعدني كما يفعل كل

رجال الدنيا، إنك تضايقني بالحرية أرجوك، أرجوك، ولكن ما الفائدة؟ هذه ستكون نهاية المطاف فلا أخال صوتك وقد ارتفع يزجرني، ولا أظن أنك سوف ترفض لي شيئا مهما كلفك، إنك تضايقني بعبوديتك تلك، تذكرني طاعتك بطاعة الرق، وتؤرقني منك طيبتك المفرطة الانفصال، نعم الانفصال هو ما عزمت عليه لأني ما عدت أطيق. يدق جرس الباب، تكور الورقة التي كتبتها في قبضة يدها تلقي بها من النافذة، يدخل زوجها تقوم إليه، تحيط رقبته بذراعيها، تهمس وهي تطبع قبلة على وجهه: ما قيمة الحياة بدون حبيب مثلك؟...و..ورقة .

موسيقى العجلات



...... رتابة صوت عجلات القطار انقلبت هذا الصباح إلى موسيقى عذبة وازدحام الأجساد الخانق اختفى من ناظريهـــا، الأصوات المتداخلة التي كانت تطلق عليها التلـــوث الـــسمعي، وتضع سماعات المسجل الصغير بأذنيها لتحول بينها وبين هـــذا التلوث، حتى هذه السماعات اختفت، هي نفسها حين شرعت تعدل من هندامها أمام المرآة القديمة قرب الباب، قبل انـــدلاقها للخارج شعرت بأن شيئا ما تراه لأول مرة، لم تتبين كنهه لكن ابتسامة الرضا التي لمحتها فوق شفتيها خلال المرآة كانت كافية بالنسبة لها لتبدأ مشوارها اليومي، شعور جديد، التفتت عن غير قصد إلى الجالس بجوارها، كهلا في السبعين يمـــسك بجريدتـــه الصباحية في استغراق ملفت، استرقت عينيها بعض العناوين قبل أن يرمقها بنظرة أشعرتها بالخجل، حولت عينيها بسرعة عـــبر النافذة، عادت موسيقى عجلات القطار تدغدغ مـــشاعرها لا تعرف لماذا لم تنتبه إلى جمال هذا الصوت من قبل، أغمـــضت

عينيها في نشوة، أخرجها منها ارتطام قدم بقـــدميها، فتحـــت عينيها على إيماءة اعتذار من الفتاة الجالسة في المقعـــد المقابـــل، تبسمت راضية بالاعتذار، تعلقت عيناها بوجه الفتاة، همـــست سبحان الخالق، شعرها الأسود الفحم المتدلي في خصلات هائمة فوق الكتفين، جبهتها المضيئة الواسعة، عيناهـــا الـــسوداوان، وشفتاها المتمردتان حتى على لون أحمر الشفاه المصبوغتان بـــه، هبطت بعينيها قليلا، لمحت صدًرا ثائرا يكـــاد يفـــض قيـــوده، وخصرًا رغم جلسة الفتاة المسترخية تتـــضح معالمـــه، قفـــزت صورتها في المرآة أمامها، بحركة لا شعورية تحسـســـت وجههـــا بيدها، وقفت قبل أن تمر بيدها على باقي الجسد وحمرة الخجل تعلو الوجنتين، حين توقفت العجلات عن الطنين المنتظم أفاقت من أفكارها وهي تحاول استجماع شتات نفسها، هذا اليـــوم تكمل عامًا في عملها الذي تسلمته بعد تخرجها بـــضعة أيـــام، كان عامًا شديدًا عليها، رغم ذلك استطاعت أن تتخرج، موت أبيها العائل الوحيد بعد وفاة أمها وهي لازالت طفلـــة، كـــان بمثابة الصدمة لولا فضل الله والتحاقها بالعمل، عادت موسيقى عجلات القطار إلى العزف وعلا الصوت رويدًا، رويدًا، تناغم الصوت على القضبان في حدة يذكرها بصوته حـــين تـــأخرت لأول مرة، طالعها بنظرة صارمة، ما لبث أن تحولت إلى نظـــرة عطف حين رأى حمرة الخجل واختلاط خطواتها المتعثرة، نبهها

في رقة أن لا تتأخر ثانية، أخذ يعدد مزايا الحضور باكرًا وكيف واظب هو على ذلك قرابة خمسة عشر عامًا، وقفت مشدوهة أمام نبراته وصوته الرجولي الأخاذ، سرحت بخيالها، لم تستمع لأية كلمة مما قاله، شعر أنه تمادى، توقف فجأة، أذن لها بالدخول إلى مكتبها، جلست ساهمة لا تعرف ماذا جرى لها، أبعد كل هذه المدة تكتشفه لأول مرة؟، كيف لم تره أو تسمعه من قبل؟، إنه رئيسها المباشر تراه يوميًا، تهمس بالسلام عند حضورها وانصرافها، يأتي كل يوم لموقع مكتبها يضع الملفات كما هي عادته مع باقي الموظفين بالقسم، يجلس في ركن الحجرة، يطالع دفاتره، يراجع الملفات التي تم الانتهاء منها دون أن يرفع ناظريه حتى موعد الانصراف، عادت هدهدة عجلات القطار إلى الهدوء، توقف الطنين، تلفتت في عفوية إلى الممر الفاصل بين مقاعد القطار، لمحت سيدة في الأربعينيات تحتضن رضيعًا في حرص بالغ، تمنت لو أن هذا صغيرها، بجوار السيدة يقف شاب مكفهر الوجه متأفف، خلفه تستند فتاة إلى ذراع شاب، يتبادلان الحديث بصوت خفيض، يبدوان كحبيبين أو مخطوبين، تحركت شفتاها بالكلمة الأخيرة، همست لنفسها، الخطوبة، يا لها من كلمة رائعة، عاودت العجلات حركتها وصوتها المتهتك فوق القضبان، سرحت بخيالها عبر النافذة، أتراه شعر بما شعرت به؟، ذمت شفتيها في حيرة، حاولت الهروب

من أفكارها، أغمضت عينيها وهي تسند رأسها إلى النافـذة، تبسمت شفتاها وهي تطابق بين موسيقى العجـلات ودقـات قلبها المتناغمة، هبت الفتاة الجالسة بمواجهتها واقفة، حاولـت العبور إلى الباب متحاشية الأقدام في حذر، فتحـت عينيهـا، عاودها الشعور ذاته وهي تقارن بين جمال الفتـاة ونفـسها، شعرت بأن الجميع ينظر إليها وهي تحاول تذكر تفاصيل الجس في المرآة، رمقتها الفتاة بنظرة باسمة قبـل أن تغـادر القطـار، يذكرها القطار وصوت عجلاته الصاخبة بالحياة، يركب مـن يركب، وينزل من كتب عليه المغادرةن انحدرت دمعـة علـى وجهها وذكرى أبيها تمر بها، قصيرة هي الحياة، بـاق محطـة واحدة، هل سيفاتحني اليوم؟، هل أفاتحه أنـا؟، أ... لم تكمـل، كيف لفتاة مثلي أن..انتبهت لصوتها الذي فارق الهمس بقليل، صمتت، لملمت أفكارها، هبت واقفة، اتجهت للباب، توقـف صرير العجلات، نزلت متباطئة تود ألا يفارقها صوت موسيقى العجلات، أخذت الأصوات تتباعد حتى تلاشت، الوقت لازال باكرًا، إنه الآن بالمكتب، لعلها فرصتي الآن أخـذت تحـدث نفسها في همس حتى وصلت إلى المكتب، دخلت لاهثة، ألقـت بالسلام، كان قابعًا كعادته في ركن الحجرة وبيـده الجريـدة، حاولت شد انتباهه، سألته: ما هي الأخبار اليوم؟، رفع ناظريه إليها وقطب جبينه، إنها المرة الأولى التي تتحدث فيها عن شيء،

رد ساخرًا: وما يعنيك من أمر الأخبار؟ تلعثمت وهي تـــرد: لا شيء، شعر بفظاظته، أردف: كل النساء لا يعنيهن إلا الزينـــة وأمور المطبخ، تعلقت بطرف حديثه: عفوًا، ليست كل النساء، و لكن ألا ترى أن الرجل يهمه هذان الأمران في المـــرأة الــتي يختارها كزوجة؟، رد بعد أن عدل من جلسته: نعم في امـــرأة يختارها، وليس أي امرأة يقابلها، أي امرأة كأي رجل عندي أنا مثلا، أتوق للحديث كائنا من كان، هو أو هي، ويكفيني فقط كونه إنسانا يحادثني و يشاركني هموم الحياة، و..توقفت كلماته و هو يطالعها من وراء نظارته، ازدرد ريقه وهو يتابع: أي شيء فيكِ اليوم؟ إنك لست كعادتك، أومأت برأسها خجلا وهـــي تسأله مستفسرة: ماذا تعني؟ تردد قليلا قبل أن يكمل: أعني أنك أجمل، أشيك، أرق من كل يوم رأيتك فيه سابقا، قطع كلامـــه وصول موظفي المكتب .

لم تستطع أن تقوم بأي عمـــل، ظلـــت محدقـــة في الأوراق ودقات قلبها تهزها بعنف مذكرة إياهـــا بالقطـــار وموســـيقى عجلاته، مضت ساعات العمل وهي ساهمة تقلـــب في الأوراق بين الحين و الحين، وتختلس النظر إليه وهو مشغول في مراجعـــة الملفات، خاب أملها حين هب واقفا، ألقى بالـــسلام قبـــل أن يغادر، حاولت أن تهدئ من قلقها وهـــي في طريقهـــا لمحطـــة القطار، التمست له الأعذار، كيف له و هو رمـــز الانـــضباط

والوقار أن يحادثني أمام الجميع؟، أخذت تلوم نفسها، أكان من الممكن أن يقولها وسط الجميع؟ أنت جميلة رائعة، ليس هذا إنصافا للرجل، ولكن لماذا لم يلمح لي ولو بنظرة، كيف يفعل هذا وموظفو المكتب..؟ قطع حديثها صوت القطار وأزيز عجلاته وهو يحاول التوقف بالمحطة، في خفة قفزت إلى القطار، لمحت مقعدًا شاغرًا، ألقت بنفسها عليه، أسندت رأسها إلى النافذة وهي تنتظر تحرك العجلات، قطع تركيزها صوت السيدة الجالسة بجوارها، كانت تحادث سيدة أخرى بصوت عال، شدها الحديث رغم غرابته، أيعقل أمر كهذا؟، سحر؟، أعمال يفكها الشيخ البهلولي؟ السيدة تؤكد وتقسم، سحروا رقية فأصبح زوجها لا يطيقها حتى فك الشيخ البهلولي السحر، والله ده سره باتع، تبسمت وهي تحاول النظر جهة النافذة بعدما ذكرها الكلام بأحد أفلام السينما القديمة، صوت السيدة قطع تركيزها، عاودت الإنصات عن غير قصد، السيدة لازالت تتحدث عن بركات الشيخ ورفيقتها تبدي الاقتناع المغلف بالاندهاش، توقفت السيدة عن الكلام بتوقف عجلات القطار، تودع رفيقتها، أخيرًا تستطيع التمتع بموسيقاها المفضلة حتى تعود إلى البيت، ألقت بنفسها فوق السرير، صوت العجلات لازال يدغدغ مشاعرها، تمزج بين قوته وهندسة انتظامه، وبين صوته الدافئ القوين تخيلته أمامها، يقترب، يحتضنها، تناولت

الوسادة، اعتصرتها بين يديها وقلبتها، احمرت وجنتاها خجلا
كيف تسلمين نفسك له من أول لقاء هكذا؟، ألقت بالوسادة،
ضحكت، تذكرت حديث السيدة بالقطار، علت ضحكتها،
كم كان والدها يسخر من هؤلاء المشعوذين ومن يصدقهم أو
يتبعهم، أغمضت جفونها تود لو تحلم به، حين استيقظت قبل
موعدها كان هاجسها أن تصل قبل الباقين، تخيرت ثوبًا لم
تلبسه منذ زمن، عاودت وضع زينتها مرتين وهي ترجح أنه
يفضلها هادئة، هذا يتفق مع وقاره، انحصر تفكيرها طوال رحلة
القطار الصباحية فيما ستقوله له، وماذا سيكون رده، وهل
سيكمل حديثه الذي بدأه بالأمس؟ لم تعرف أجوبة لكل هذا،
وصلت المكتب، تبسمت فرحة وهي ترى التغير الذي طرأ على
ملابسه حتى نظراته لم تكن كسابق عهدها، نظرات ملؤها
الرغبة، عينان لامعتان بحب لا يستشعره إلا من دق قلبه للحب
فجأة، بادرها بالكلام، تلعثم و هو يشعر بمرور الوقت، طلب
مقابلتها بعد انتهاء العمل: ليكن في المطعم قرب محطة القطار،
أردف: إذا لم يكن لديك مانع، أومأت موافقة وقلبها يكاد يطير
فرحًا، وان لم تبد هذا مرت ساعات العمل ثقيلة وهي تحاول ألا
يبدو عليها شيء، في المطعم وفي ركن منزو، كان ينتظرها،
ازدرد ريقه، ثم أردف: لست مراهقا أو شابًا بلا خبرة، لذا فأنا
سأكلمك عن نفسي وظروفي، وأرجو ألا يغير هذا من مشاعرك

تجاهي، أردف: أنا متزوج، ولكن، ولكني غير سعيد، حياتي أصبحت روتينية، زوجتي غيرك تمامًا ليس لها رقتك أو جمالك جاذبيتك، حاولت أن تتكلم، أشار بيده، انتظري حتى أكمل، أعرف سؤالك، لماذا إذن قابلتك وسمحت لمشاعري هذا؟ لأني أريدك، أحتاجك، أنا أريدك زوجة لي، إذا وافقت سأكون أسعد رجل على وجه الأرض، وإذا رفضت سأكون أتعس إنسان، لم تستطع الكلام، كيف خانها ذكاؤها؟، كيف لم تلحظ يوما أنه متزوج؟ إنه لم يتكلم يومًا عن زوجته وأولاده، أومأت برأسها حائرة، أعجبتها صراحته، حاول قلبها الدفاع عنه خلال تناول الطعام، ظل يرمقها بعينين عاشقتين وهي تحاول مداراة خجلها وصرف تفكيرها في ردها على سؤاله، قبل أن يغادر المطعم همس لها: سأترك لك فرصة للتفكير، لا تردي الآن، الجرد السنوي بمحافظات الصعيد بعد غد، أنا منتدب لرئاسة إحدى اللجان، سأتغيب أسبوعين، أرجو عند عودتي أن تكوني قد اتخذت قرارك، عند خروجهما لاحظت أحد الأشخاص يرمقها بنظرة مرتابة، لم تلتفت إليه، اشتعل حبه بقلبها زاد شوقها، تخيلته في العمل، في البيت، حلمت به في منامها، أصبح شغلها الشاغل، لم تصادفها تلك الأحاسيس من قبل، قلبها ينبض وجسدها ينتفض حين تفكر به، عقلها تعطل بعد رفضه لحبيبها، أغفلت الاستماع إليه، ماذا يضر إن تقاسمته

أنا وزوجته؟، المهم من يحب، وإلى من يميل، أمضت الأيام وهي بين أحلامها وأشواقها، لم تستطع مدارة فرحتها يوم وصـــوله، أقبلت باكرًا والابتسامة تعلو وجهها، هو لم يكن أقـــل منـــها سعادة، همس إليها: أحبك، أطرقت إلى الأرض في حياء، سألها: متى يتحقق الحلم؟ لم تجب، أردف: ليكن الأسبوع القادم، لدي إجازة أسبوعان نمضيها بعيدا على ساحل البحر بعد أن نتزوج، رقص قلبها وهي تحاول أن تكبت فرحتها المختلطـــة بحيائهـــا، همس وهو يطالع ساعة يده: الغداء بالمطعم، لدي الكثير لأقوله، أجابته بابتسامة، تأخرت قليلا حتى لا يلحظ أي من زملائهـــا شيئا، عند باب المطعم رأته خارجًا بصحبة ذات الرجل الـــذي رأته يرمقها من قبل، لم تكلمه، تبادلا النظرات وهـــي تحـــاول تجاهل نظرة استهجان من عيني الرجل، لم يهدأ تفكيرها، ظلت الليل مستيقظة، عند خروجها صباحا كانت متلهفة لمعرفة مـــا حدث، غطى ألم رأسها على أصوات عجلات القطار، لم تشعر إلا وهي واقفة أمام مكتبه الخالي، ظلت تائهة تشعر بـــضيق، لم تطق البقاء، استأذنت، لم يفارقها الألم طوال اليوم، صباح اليوم التالي، حين وصلت، بادرته: ماذا حدث، من كان هذا الرجل؟ أطرق في حزن: شقيق زوجتي، وقد عرفت زوجـــتي بـــالأمر، عاجلته بسؤال: وهل غضبت؟ رد في عجب: لا، ما ضايقني هو عدم اكتراثها بالأمر، فقط طلبت مني التفكير، إما أنتِ وإما هي

والأولاد، سرت قشعريرة بجسدها: وهل فكرت؟ أجاب وهـــو يمد يده ليدها: أنا لا أستطيع الاستغناء عنك مهمـــا حـــدث، شعرت براحة وهي تستمع لصوته الواثق القوي، قبل أن تتركه إلى مكتبها، قال بصوت كسير: فقط أعطـــني فرصـــة لأقـــوم بالترتيب، يجب ألا ندع شيئا ينغص علينا فرحتنا بالزواج طـــار قلبها فرحًا وهي تستمع لكلماته .

مرت الأيام وهي غارقة في سعادتها، لم تلحظ تغير مشاعره، صار كالسابق لا ينظر إليها عند حـــضورها بـــاكرًا، يـــرد في اقتضاب، حاولت أن تقنع ذاتها أنه مشغول بالترتيب لزواجهما ووضع حد لتعنت زوجته، في نهاية الأسبوع مضى مغادرًا دون أن يطلب منها انتظاره بالمطعم، مرت كالعادة، لم تجده، فيما بعد ذهبت مبكرة، نظرت إليه، أطرق إلى الأرض حين رآها، همس في انكسار: لن أستطيع إكمال ما اتفقنا عليه، صرخت: لمـــاذا؟ وحبنا؟ همس: لعلها نزوة، بكت: لم تعد تحبني أم هي ضـــغوط زوجتك؟ لم يخرج عن هدوئه: الأمر أكبر مني و منك، أولادي، ربما مازلت أحبك، لكن لا أستطيع الارتباط بك، صدقيني الأمر أخطر مما تصورنا، صرخت: سأقف بجانبك، أجابها في انكسار: لن يفيد، صاحت: أحبك، رد: وأنا أيـــضًا، لم تتوقـــف عـــن البكاء، صرخت ثانية: سأقف بوجهك حتى لا تدمر هذا الحب، هز رأسه وهو يردد: لن تفهمين، ليتك تفهمين، غادرت المكتب

عائدة حين تحرك القطار بها تذكرت حديث السيدة، لم لا يكون تغيره المفاجئ بسببها هي، نعم سحرته زوجته، استولت عليها الفكرة، قفز عقلها غاضبًا، كيف تفكرين بهذه الطريقة، هل أطار الحب صوابك؟، أسكتت صوت العقل وصدرها يعلو ويهبط في استنفار، هبت واقفة، نفس المحطة التي نزلت بها المرأة، سوف أسأل عن الشيخ البهلولي، لم تجد صعوبة، وصلت ببابه، بعد ساعة سمح لها بالدخول، هتف: حبيب القلب معمول له عمل، أيقنت بسره الباتع كما قالت السيده تمتمت: بركاتك يا شيخنا والمطلوب؟رد صائحا، الجودة بالموجود، غادرت وهي ترتجف بعد أن وضعت مبلغا، لم تحاول عده من فرط فزعها .

خلال الأسبوع بدا كعادته الأولى في هدوئه وتحاشيه أن تلتقي عيناه بعينيها، همس لنفسه: كيف كنت سأخطيء في حقه وحق نفسي وزوجتي وأولادي؟ إنها تقارب في عمرها عمر ابنتي الكبرى؟، كم كنت سأندم لو فعلت.. انتبه على صوت الساعي وهو يبشره: لقد وافق المدير على إجازتك، همس لنفسه: الحمد لله، الآن أستطيع أن أمضي أسعد إجازة مع زوجتي وأولادي كما وعدتهم، رمقها بنظرة سريعة، كانت ساهمة، نظراتها تائهة وحزينة، أطرق إلى الأرض وهو يلعن وسوس الشيطان التي جعلته سببًا في تعاستها، ليتها تفهم، هز رأسه، ستفهم يوما وستصفح .

نظرت في ساعة يدها، هبت واقفة، إنه موعدها مع الشيخ البهلولي، استأذنت في الخروج .

القطار بعجلاته الصدئة كان في انتظارها، لم تعد تسمع موسيقى العجلات، كل شيء أصبح بلا صوت، بلا لون أو طعم حولها، استقبلها الشيخ بالصنياح والبخور: عملك فعلك والأسياد طالبين تطهير، ردت في خوف: لم أفهم، صاح: الجودة بالموجودة، قدامك طريق واحد عشان عملك ينفك وتزول الأسباب وينفتح الباب، ويدخل بيكي حبيب القلب وينقفل عليك إنتي وهو الباب، حي، ردت وهي تستخلص من حقيبتها المال: وإيه المطلوب؟ صاح: لازم يعدي من فوقك قطر سكة حديد بسرعة وتصرخي و تقولي: حديد حديد بعيد، بعدها ينفك العمل وتنولي المراد .

خرجت مهرولة، وهي لا تصدق ما سمعت، كيف لها بالقطار؟ تذكرت أحد الأفلام، البطل يستلقي بين القضبان، والقطار يمر في سرعة، يقوم بعدها البطل لم يصبه شيء: ولكن هذا بالسينما، وهل أفقد حبي من أجل الخوف، والموت؟ إنني بدونه شبه ميتة، حسمت أمرها، يجب أن أفعل ما أمرني به الشيخ، بعيدًا عن المحطة اختارت المكان، التوقيت بعد غد الخميس .

هيأت نفسها للحدث، مساء الخميس، استقلت سيارة، نزلت بجوار سكة القطار، تلفتت، لم تر أحدًا، اختارت بقعة مظلمة، ألقت بنفسها بين القضبان، حاولت الالتصاق بالأرض، تحرك القطار من المحطة محدثا ضجيجا غطى على صوت أولاده ورنات ضحكاتهم، أحلامهم بقضاء الإجازة على الشاطئ استولت على تفكيرهم، سرح بخياله ، إنه لا يشعر تجاهها الآن سوى بعاطفة الأبوة ، يشعر بالذنب لأنه أخطأ في حقها، إنها تتعذب. سيطلب ترقيتها عند عودته من الإجازة، وسيطلب نقلها من القسم أيضا، لتريحه وتستريح، انطلق القطار وانطلقت معه أغاني أبنائه على صوت موسيقى العجلات الصاخبة، انضم إليهم أغلب من كان في العربة، امتزجت الأصوات في لحن صاخب.

اقترب صوت القطار، قاومت، قاومت، قاومت: يجب أن ينفك العمل ويعود لي، لقد أحببته بكل جوارحي، ليس له ذنب، لقد سحرته زوجته، الآن بعد مرور القطار سيزول السحر ويعود لي، أنا موقنة أن الشيخ البهلولي له كرامات، اقترب الصوت أكثر، موسيقى العجلات تعلو وتعلو، فكرت في الفرار، تراجعت، حبه تملكها، سيجعلها تحتمل أي شيء ولو حتى الموت، سرت قشعريرة في جسدها حين ذكرت الموت، القطار يقترب، داخل عرباته صخب، صوت أولاده يعلو،

يطالبونه بمشاركتهم في الغناء، اكتفى بالتصفيق والبسمة تعلـو وجهه، قسمات وجهها المكفهر كانت تعلن عن الفزع الـذي تملكها، قلبها يدق، أنفاسها تتلاحق، علا التصفيق و الغناء، كاد صوت العجلات يختفي وسط الصخب، مر كالوحش الكاسر، من فوقها، سارعت دقات قلبها، لم تعد تحتمل، توقف القلـب، أسلمت الروح، لازال القطـار في اندفاعـه ولا زال أولاده في لهوهم وضحكهم، سعادة أنسته كل شيء .

كشف حساب



مدخل

أمسك بالقلم محاولا سطر بعض مما يجول بخـاطره، اهتـز القلم، تماسك سطر بضع كلمات، رمقها بامتعـاض، التقط الورقة في غضب، كوّرها قذف بها، بدأ من جديـد: أحبـك كانت أولى الكلمات، تنهـد في ارتيـاح، قبـل أن يكمـل: أعشقك، كلمات العالم تقف حـيرى حـين أحـاول نقـل مشاعري، رمزي الأوحد للعشق، تميمتي الكـبرى للـسعادة، تتقاذفني أمواج الفكر، أتساءل دومًا، تنتحر تساؤلاتي في مرارة، أكان صوابًا ما فعلناه يا زهرتي؟، تتقاطع أجـوبتي، أحملـق في تساؤلاتي المتكررة، أعاود ترديد لحني الحزين .

حاشية

أكتبك يا لحني بعد سنين، ترى أكان صوابًا ما اتخذناه من قرارات عنترية، وبعد تشدقنا بكل الكلمات البطولية وعبارات التضحية الهلامية، أكان صوابًا؟ تسربت السنون من بين أيدينا، وتخطفتنا الأيام، لا أعلم أهي الأيام سرقتنا ؟ أم نحن الذين أضعناها؟ .

أتذكرين حين افترقنا لأول مرة؟، وتلاقينا بعد أشهر، لكننا ما استوعبنا الدرس، وعاودنا الافتراق، أتذكرين كان لقاؤنا الأول بعد أشهر مرت ثقيلة، كان كالغيث، وعاودنا الافتراق، كم مر من السنين يا حبي الثابت فوق جبيني؟، لا أعلم، فسنين عمري تحسب فقط بالأيام التي تجمعنا .

عشقي الأوحد، ما زالت تساؤلاتي كالغصة في حلقي، مازلت أنا كصاري السفينة منتصبًا، أراقب انفلات أيام العمر كما تتوالى الموجات المتكسرة، ترى هل سيصمد الصاري؟ هل ستبقى بوصلة العمر تعمل؟ أم سيصيبها الصدأ؟ .

خاتمة

لامست عجلات الطائرة الأرض، تنفس الصعداء، رمق الشمس من النافذة وقد مالت في صفرة خالها ذهبية أول الأمر، حين ترحل شعر بثقل السنين، عاود النظر إلى الشمس كانت تنثر دماءها في الأفق، عاد ببصره إلى حقيبته، حملها في هدوء، دلف من الباب، احتضنته عيناها، أحاطته بذراعيها الواهنتين، استند إلى ذراعها، تململ في حلقه سؤال، نظرت إليه، أومأت إلى الأرض، أجابته في مرارة: لن يحضروا هذا العام، رسائلهم كلها قالت ذلك، تنهد وهو يعبر باب حجرته، احتضن صورهم، انحدرت دمعة ساخنة، ردد في صمت: أكان صوابا ما فعلناه ؟ تراجع الصوت صدًى أبديًا، ولا.. إجابة .

الفهرس

الكاتب في سطور

أشرف نبوي

مواليد الإسكندرية

كاتب يحاول أن يجد له موطئ قدم تحت سماء الإبداع

ينشر له من آن لأخر بالصحف المصرية والعربية

صدر له من قبل

- ضحكات دامعة
- القطار والثوب الأزرق
- على ضـــــــوء القـــــــــمر

